الفصل الثالث

يوسف بن تاشفين وقيام دولة المرابطين بالمغرب والجواز الأول الى الاندلس

مر معنا من قبل أن البكري الذي كان يكتب عن المرابطين سنة ٤٦٠ هـ/١٠٦٨ م لم يعرف يوسف بن تاشفين مع أن الرجل كان كما توحي المصادر الأخرى كان في العقد السادس من عمره وكان من أبرز زعماء المرابطين ، وجاء لدى كل من صاحبي روض القرطاس والحلل الموشية ما يفيد أن ابن تاشفين كان ابن عم ابي بكر بن عمر ، ابن عمه لحمة ، يجتمع معه في جدهم «ابراهيم بن تورقيت» والد كل من تاشفين وعمر . لكن والرجل بهذه المكانه وهذا النسب لماذا لم يعرفه البكري ؟

والمثير للانتباه أن الادريسي عندما تحدث عن أهم قبائل صنهاجة أوحى الينا بأمر اخر حول القرابة فيما بين ابن تاشفين والأخوين أبي بكر ويحيى بن عمر ، يقول **الادريسي** « ومن قبائل صنهاجة بنو منصور وتمية وجدالة ولمتونة ، وبنو ابراهيم وبنو تاشفين. وبنو محمد وجمل من صنهاجة »(١)فهل ياترى انحدر يوسف من بني تاشفين وانحدر أبو بكر مع أخيه من بني ابراهيم ؟ إذا صح هذا ففيه تبيان لنوع القرابة التي ربطت يوسف بالأميرين اللذان تقدماه .

وترجم ابن خلكان في وفيات الأعيان ليوسف بن تاشفين، واستقى معلوماته من كتاب حمل اسم «المعرب عن سيرة ملوك المغرب» لم يهتد الى مؤلفه غير انه وجد في مطلع النسخة التي نقل عنها انها كتبت في الموصل سنة تسع وتسعين وخمسمائة «وجاء في

هذه النسخة « كان بـــر المغـــاربة الجنوبـــي لقبيلة تســـمى زناتة ، فخرج عليهم من جنوبي المغرب من البـلاد المتـاخمة لبـلاد السودان الملتمون يقدمهم أبو بكر بن عمر ، وكان رجلا سائجا خير الطباع ، مؤثرا لبلاده على بلاد المغـرب ، غير ميال الى الرفـاهية، وكانت ولاة المغرب من زناتة ضعفاء لم يقاوموا الملثمين ، فأخذ البلاد من أيديهم من باب تلمسان الى ساحل البحر المحيط ، فلمـا حصلت البلاد لأبي بكر بن عمر المذكور سـمع أن عجـوزا في بـلاده ذهبت لها ناقة في غداة فدكت وقالت ضيعنا أبـو بـكر بـن عمـر بدخوله الى بلاد المغـرب ، فحمله ذلك على أن اسـتخلف على بـلاد المغرب رجلا من أصحابه اسمه يوسف بـن تـاشفين ، ورجـع الى بلاده الجنوبية . وكان يوسف هذا رجـلا شـجاعا عادلا مقـداما، احتط بالمغرب مدينة مراكش»(٢).

وكنا قد سمعنا عن يوسف بن تاشفين للمـرة الأولى لدى تـوليته سجلماسة ثم في الحملة ضد برغواطة ، ولقد عاد مع ابي بكر بن عمر وعسكر معه في أغمات ، وكانت حاضرة ديار قبائل مصمودة ، ولم يعش أبو بكر بن عمر طويلا في اغمـات بـل عاد نحـو الصـحراء.

وحين فعل ذلك أوكل الأمور في بلاد المغرب الى يوسف بن تاشفين حتى انه طلق زوجته زينب النفراوية واوصاها بالزواج من يوسـف ففعلت

لم تمحض قبائل مصمودة الولاء للمرابطين ، وكانت أغمات التي اتخذت الآن حاضرة لهم بلدة مـردهرة غير أن سـكانها كانوا مـن مصمودة ، وكانت منقسمة الى بلدتين هما اغمات وريكة واغمـات هيلانة ، وكان ان تخلص اغمات للمرابطين معناه اخراج اهلها منها واسكان المرابطين محلهم ثم تـوحيد المدينة وتحصـينها بـالأسوار وغير ذلك من الوسائل الدفـاعية ، ولم يكن هـذا ممـكنا ، يقـول الزهـري :« والمصـامدة خلق كثير ، مسـيرة بـلادهم عشرون يوما ، وعندهم بالمغرب الكسـب الكثير مـن بقـر وغنم ، والزرع قليل ، وأكثر فاكهتهم العنب والزيتون والتين ...

واما مدينة اغمات التي هي في اقصى هـذا الصـقع فهـي مـدينة موسومة بالقدم ، وكانت حاضرة المصامدة ، وبالقرب منها البـركة العظيمة التي تجتمع فيها مياه اغمات كلها ، وهـي كثيرة الفـواكه والكروم والزرع والضرع» (٣) .

لذلك توجب على المرابطين اتخاذ حاضرة لهم خاصة بهم بدلا من اغمات ، فجرى استطلاع المنطقة فوقع الاختيار على موقع مراكش.

وجاء عند صاحب الحلل الموشية :« لما خرج ـ ابو بكر بن عمر ـ من الصحراء باللمتونيين ، واحتلوا بأغمات وريكة ، وكثر الخلق بها وضيقوا على اهلها ، وكانوا على حال صعبة ، شـكا اشـياخ وريكة وهيلانة الى الأمير ابي بكر بن عمر مـا يلحقهـم في ذلك مـن العناء والمشقة وانهوه اليه المرة بعد المرة ، الى ان قال لهم : عينوا لنا موضعا نبني فيه مدينة ان شاء الله.

فاجتمعوا على ان يكون بناؤها بين بلاد هيلانة وبين بلاد هزميرة فعرفوا بذلك الأمير ابا بكر بن عمر ، وقالوا له : قد نظـرنا ايهـا الأمير موضعا صحراء ، رحب الساحة واسع الفناء يليق بمقصدك.

وقالوا له :(وادي) نفيس جنانها ، وبلاد دكالة فـدانها وزمـام جبل درن بيد اميرها» (٤) .

ولعل النقطة الهامة في هـذا ليس تبيان الامـكانات الاقتصـادية للموقع المرتاد وانما «زمام جبـل درن» فهنا مفتـاح السـيطرة على المنطقة وضمان التواصل مـع الصـحراء ، ويسـتخلص ممـا رواه صاحب الحلل الموشية أن بداية هذا المشروع العـظيم جـاءت سـنة ٤٦٠ هـ/ ١٠٥٨ م ، وذلك في ظل قيادة ابي بكر بن عمر ، فهو كان موجودا في اغمات ، ويضيف صاحب الحلل انه شرع في بناء المدينة الجديدة «سنة اثنتين وستين واربعمائة » وانه بينما «الأمير ابو بكر ابن عمر قد نزل بها واخذ في بناء الديار ، اذ وفد عليه رسول من قبيلة لمتونة بالصحراء ، يعلمونه ان جدالة اغارت عليهم ، وكانت بينهـم فتنة دائمة ، فاستخلف ابن عمه يوسف بن تـاشفين على المغـرب، ودخل الى الصحراء لاصراخهم ولأخذ ثأرهم من عدوهم»(٥) .

وليس من السهل الركون الى هذه الرواية والأعتماد على ما جاء بها من تواريخ ، فلقد راينا من قبل أن ابا بكر بن عمر عاد الى الصحراء للحرب ضد السودان وعلى جبهة السودان قضى ، ثم إن دينار ابنه ابراهيم وما ذكره ابن الأثير والنويري قد دعانا الى مراجعة الروايات المعطاة الينا وبعض المصادر حول تاريخ وفاته ذلك أن المعتمد دوما هو الوثيقة لاسيما اذا دعمتها بعض الروايات ، هذا وجعل صاحب روض القرطاس تاريخ تأسيس مراكش سنة ٤٥٤ هـ/١٠٦٢ م (٦) .

ومهما يك من أمر يبقى تاريخ مراكش مرتبط بيوسف بن تاشفين لابل اكثر من هذا إن تاريخ حكم المرابطين بالمغرب ثم بالأندلس مرتبط بشخصية يوسف بن تاشفين ، وبعد يوسف عاشت دولة المرابطين بداية النهاية .

وجاء رسم اسم مراكش في المصادر المبكرة «مروكش» او ما يشابه ذلك ، وقد اختلف حول تأويل هذه التسمية وتركيبها وارجح الآراء الحديثة أن معناها «هو حمى الله أو المكان الذي ترعى فيه عهود الله»(٧) أو المرعى فقط .

وبنيت المدينة الجديدة بدون تصور موحد او خريطة ، مثلما فعل المنصور العباسي عندما بنى بغداد ، واستخدم الناس في بناء دورهم الآجر ، إنما بني ليوسف دار من الحجر (قصر الحجر) وعلى مقربة منه شيد المسجد الجامع ، وحول هذا المسجد قامت بعض الأسواق.

إنما يبدو أن هذه المدينة وإن حصرت بأسوار دفاعية تكونت بالأصل من عدة أحواز كان كل منها أشبه بقرية منفردة ، ومرد هذا الى أن كل عشيرة أو مجموعة بشرية متجانسة اتخذت لنفسها رقعة من الأرض اختطت عليها مساكنها ، وحين قلت مجموعة بشرية متجانسة هدفت الى الاشارة الى أن أعداد كبيرة من الأندلسيين سكنت المدينة ، انتقل بعضهم من اغمات وقدم بعضهم الآخر بعدما ما جذبته الدولة الجديدة ، والهجرة من الأندلس الى المغرب تصاعدت وتيرتها بنتائج حرب الاستغلاب والاضطراب السياسي في

ظل دول الطوائف ، وفيما بعد بسبب اعتماد دولة المرابطين على خبرة الأندلس في جميع المجالات ، وكان لهؤلاء الأندلسيين أعظم الآثار في تكوين شخصية المغرب الأقصى حضاريا وعمرانيا وثقافيا.

ومن المرجح أن يوسف بن تاشفين لم يحسن العربية ولاالقراءة والكتابة وأن الأندلسيين تعلموا بسرعة لغة اللمتونيين فقاموا بدور الاداري والمترجم ،جاء عند ابن خلكان :«وكان يوسف بن تاشفين لايعرف اللسان العربي ، ولكنه كان يجيد فهم المقاصد وكان له كاتب يعرف اللغتين العربية والمرابطية»(٨) .

وسكن مراكش بعض الأندلسيين وسواهم من غير المسلمين عملوا كمرتزقة في قوات المرابطين ، (٩) ويبدو أن الموقع الذي اختير لبناء المدينة المرابطية الجديدة كان معروفا وقع على طرق التجارة ، وكان فيه وقت وقوع الاختيار عليه « قرية صغيرة في غابة من الشجر» (١٠) وفي الحقيقة لانعرف فيما اذا كان الأندلسيون قد شغلوا دورا ما في خطط المدينة المرابطية الجديدة وفي تطويرها كما أننالانعرف كم استغرق العمل فيها ، والمهم لدينا انه بتأسيس مراكش امتلك المرابطون قاعدة انطلقوا منها لبناء دولتهم المغربية الأندلسية ، وامتلك ـ بالوقت نفسه ـ المغرب الأقصى مدينة غدت مع الأيام قاعدة متقدمة للاسلام وحاضرة هي الأكبر والأهم في الشمال الأفريقي .

من مدينة مراكش انطلق يوسف بن تاشفين نحو بناء دولة المرابطين المغربية ، وقد توجب عليه انتزاع معظم بلدان المغرب من قبيلة زناتة(١١) ، لكن لم يكن بامكانه الانصراف ضد زناتة حتى يتخلص من خطر برغواطة التي جمعت فلولها ، وتولى أمرها أمير عرف بأبي حفص عبد الله (١٢) ، وقام يوسف بن تاشفين أولا بمراسلة برغواطة فبعث بوفد من علماء المالكية الى بلاد تامسنا ، والتقى هذا الوفد مع رجالات برغواطة في مدينة انفا (الدار البيضاء حاليا) المطلة على المحيط الأطلسي ، وقرر البرغواطيون«اعدام السفراء ونفذوا قرار هم ، وعبأوا بعد ذلك

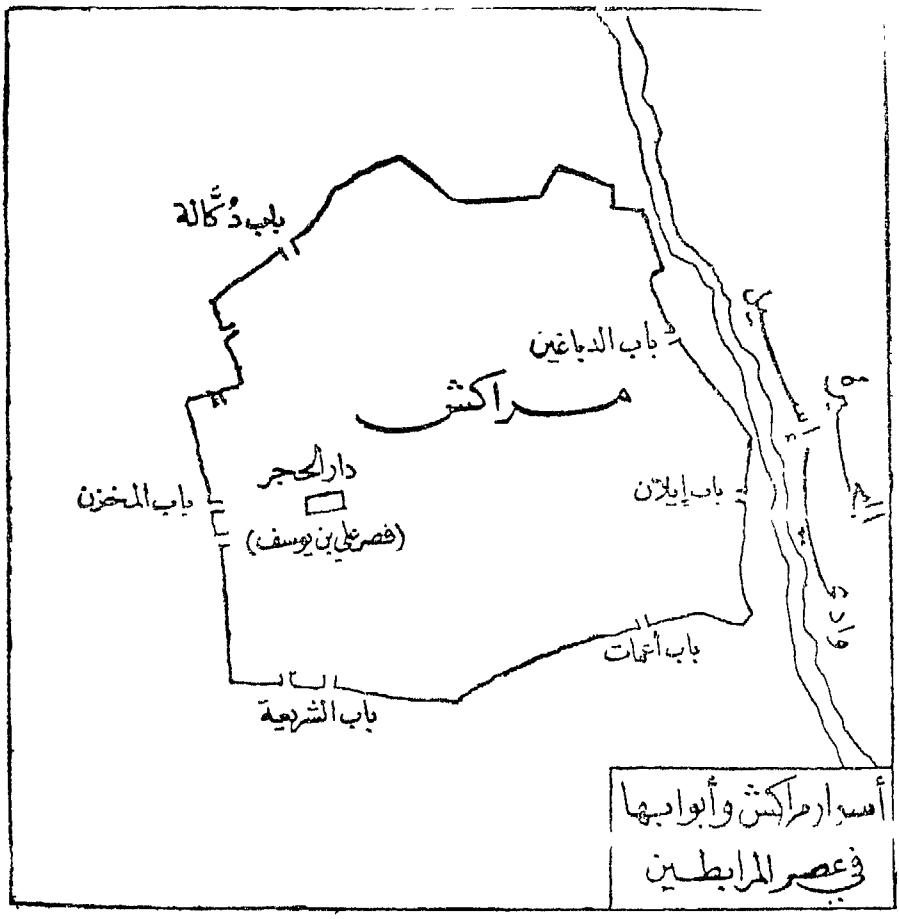

أسوار مراكش وأبوابها
في عصر المرابطين

جيشا قوامه خمسون الف محارب قاصدين طـرد قبيلة لمتـونه مـن مراكش ومن المنطقة كلها ، وعندما علم يوسف بـذلك انتـابه أشـد غضب انتابه في حياته ، فجمع جيشا عظيما ولم ينتظر قدوم العـدو الى مراكش ، ووصل خلال ثلاثة أيام الى الاقليم بعد أن عبر نهر أم الربيع ، وعندما رأى اهل تامسنا هذا الجيش الزاحف لمواجهتهـم بحمية شديدة ، انتابهم الخوف وتحاشوا المعركة وعبروا نهر ابـي الرقراق في اتجاه فـاس ، تـاركين اقليمهـم ، وحينئذ أبـاح الملك يوسف هذا الاقليم وسكانه لجيشـه ، فـأصبح طعمـة للنار والدم والنهب والتقتيل للكبار والصغار حتى الأطفال الرضع.

وفي خلال الأشهر الثمانية التى جـاس فيهـا البـلاد عمـل على تخريبها حتى لم يبق فيها سوى بعض اطلال مـن المدن التـي كانت قائمة فيها ، أضف الى ذلك أن ملك فاس الذي بلغه نبأ قصـد اهـل تامسنا عبور نهر أبي الرقراق زاحفين باتجاه فاس ، عقد هدنة مع قبائل زناتـه ، واتجـه نحـو النهـر المذكور على رأس جيش لجب ، وهناك واجه ملك تامسنا البائس الذي كانت قواته منهـوكة القوى تماما بسبب الجوع والبؤس ، ولما حاول ملك تامسنا عبـور النهر وجد الممر مسدودا في وجهه بتأثير قوات ملك فـاس ، وهـكذا أضطر هؤلاء البؤساء بعد أن أصبحوا مطاردين ويأسوا من قضيتهم إلى التشتت في الغابات وبين الصخور التي يعسر اجتيازها ، وبعـد أن طوقوا وحـوصروا مـن قبـل الجيوش الملكية أبيدوا بثـلاث طرائق ، فبعضهم غرقوا فعـلا في مياه النهـر ، وبعضـهم الآخـر طوردوا في مناطق الجروف الصخرية فدقت أعناقهم بعد سقوطهم في الفراغ ، وحتى الذين أستطاعوا أن يخـرجوا مـن الماء سـقطوا في أيدي رجال الملك حيث قطعت رؤوسهم بالسيف ، وهكذا راح سكان تامسنا يتناقصون ثم أبيدوا قاطبة في مدة عشرة أشهر ، ويقـدر ان عدد الضحايا بلغ المليون بين رجال ونساء وأطفال.

وعاد يوسف ملك لمتونة إلى مراكش كي يعيد تنظيم جيشـه ضـد ملك فاس وترك تامسنا مأوى للأسود والذئاب والبوم» (١٣) .

وقرأنا قبل قليل ما نقله ليون الافريقي من أن يوسف بن تاشفين عاد الى مراكش بعد القضاء على برغواطة ليعد العدة للزحف ضد فاس ويعطينا ابن عذارى سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م على أنه التاريخ الذي استولى فيه يوسف على فاس بشكل نهائي ، وأيده بهذه الرواية صاحب الحلل الموشية (١٤) ويعني هذا ان الحملة على برغواطة انتهت قبل هذا التاريخ بوقت قريب ، لكن يضعف هذه الرواية ما ذكره البكري الذي كان يكتب سنة ٤٦٠ هـ أن « جميع برغواطة اليوم على ملة الاسلام» (١٥) هذا وروى صاحب روض القرطاس أن الاستيلاء النهائي ليوسف بن تاشفين على مدينة فاس كان« يوم الخميس ثاني جمادى الآخرة سنة اثنتين وستين واربعمائة (١٦) (١٨ أيار ١٠٧٠ م) وكانت عمليات يوسف ضد فاس قد بدأت منذ سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢م ، وارجح أن ابن تاشفين انفرد منذ هذه السنة بحكم المغرب ، وأنه في هذه السنة عاد إلى مراكش من الصحراء ابو بكر ابن عمر ناويا عزل يوسف فأخفق وسلم له بالأمر ومن ثم عاد إلى الصحراء ، يقول صاحب روض القرطاس وفي سنة أربع وخمسين « تقوى أمر يوسف بن تاشفين بالمغرب وكبر صيته ، وفيها اشترى موضع تأسيس مدينة مراكش ممن كان يملكه من المصامدة ، فسكن الموضع بخيام الشعر ، وبنى فيه مسجدا للصلاة وقصبة صغيرة لاختزان أمواله وسلاحه.....وفي سنة أربع وخمسين المذكورة جند يوسف الأجناد واستكثر القواد ، وفتح كثيرا من البلاد ، واتخذ كثيرا من الطبول والبنود ، واخرج العمال وكتب العهود ، وجعل في جيشه الأغزاز والرماة ، كل ذلك ارهابا لقبائل المغرب ، فكمل له من الجيش في تلك السنة ازيد من مائة الف فارس » (١٧) .

وأعطانا صاحب الحلل الموشية مزيدا من التفاصيل حول تطوير يوسف بن تاشفين لقدراته العسكرية حتى « قوي أمره ، وعظمت شوكته ، فاشترى جملة من عبيد السودان ، وبعث إلى الأندلس فاشترى منها جملة من العلوج فأركبهم ، وانتهى عدد منهم مائتان

وخمسون فارسا ، شراء بما له ، ومن العبيد نحو الفين ، فأركبهم فرسانا ، فغلظ حجابه ، وعظم ملكه »(١٨) .

ولا شك أن شعور يوسف بالخطر على ذاته قد دفعه لشراء أعداد كبيرة من الرقيق الأبيض والأسود اتخذهم حرسا له ، ومقدر أن مصدر الخطر على يوسف كان أبو بكر بن عمر فهو صاحب عصبية لمتونة والمرابطين.

وبهذه القوة دفع يوسف بن تاشفين خطر ابي بكر بن عمر ثم دفع ايضا بسهولة اكثر خطر إبراهيم بن أبي بكر بن عمر الذي قدم من الصحراء بعد وفاة والده « يطلب ملك أبيه فنزل بخارج أغمات في خلق كثير من أخوانه لمتونة ، فسمع بذلك أمير المسلمين ، فبعث إليه الأمير مزدلي فقال ما الذي تريد يا ابراهيم؟ قال أطلب ملك ابي الذي غصبنا فيه عمي يوسف ، قال مزدلي: إن الملك بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله تعالى قد خص هذا الرجل بالملك دوننا ، فان كنت عاقلا فاطلب منه أن يعينك بمال وخيل ترجع بها الى بلدك ، وإن طلبت غير هذا أخاف أن يجعل على رجلك قيدا ، ويحبسك عنده عبدا ، وما قلت لك ذلك إلا بوجه الشفقة عليك ، فقال له: يا عمي مزدلي رضي الله عنك ،عسى أن تجتمع معه في أمري وتبين له حالي .

وكان الأمير مزدلي حسن السياسة ، صحيح المذهب ، عارفا بخدمة الملوك ، فهدن ابراهيم المذكور ، وقال له أقم في موضعك حتى اتيك بكل ما يرضيك ، فانصرف عنه ووصل الى الأمير يوسف بن تاشفين فحسن كلامه إليه ، وانعم الأمير يوسف عليه بمال وخيل وكسى وغير ذلك بعدما بولغ في كرامته وضيافته ، واحتمل له ذلك مزدلي ، فشكره الولد على ذلك وانصرف عنه من هنالك ولم يجتمع بالأمير يوسف وما راه وانصرف إلى الصحراء وبقي بها إلى ان مات »(١٩) .

ونعود ثانية إلى مسألة استيلاء يوسف بن تاشفين على

فاس ، ذلك أن هذا الاستيلاء هو الذي جعل دولة المرابطين دولة مغربية ، فقد كانت فاس دوما حاضرة المغرب الأقصى من كافة الجوانب وكانت أحوالها مضطربة قبيل الاستيلاء عليها ، ولقد راينا أن اضطراب الأحوال فيها كان وراء مغادرة ابي عمران الفاسي لها ، وكانت فاس تتألف من مدينتين هما: عدوتي الأندلسيين والقرويين ، لكل مدينة أسوارها وموقفها المعادي من الأخرى ، وقد حكمتا قبيل استيلاء يوسف بن تاشفين عليهما من قبل أخوين هما: الفتوح بن دوناس وعجيسة بن دوناس اللذان انتميا إلى قبيلة زناتة ، وتحصن الفتوح في عدوة الأندلسيين وعجيسة في عدوة القرويين « وكانت بين الأخوين عداوة وصار القتال بينهما وبين اهل العدوتين...وكثر الهرج بسبب ذلك في أرض المغرب واشتد الغلاء إلى أن ظهر امر لمتونة في أطراف المغرب ، وظفر الفتوح بأخيه عجيسة فقتله...وبعد أن ظفر بأخيه أتاه لمتونة فنزلوا عليه وحاصروه ، وتخلى عن المدينة فوليها معنصر ابن عمه ، إلى أن دخلها لمتونة وقتل من بها من زناتة ». (٣٠) .

وبعد استيلاء يوسف على فاس « امر بهدم الأسوار التي كانت بها فاصلة بين المدينتين: عدوة القرويين وعدوة الأندلس وردهما مصرا واحدا ، وامر ببنيان المساجد في أحوازها وأزقتها وشوارعها ، وأي زقاق لم يجد فيه مسجدا عاقب اهله واجبرهم على بناء مسجد فيه ، وبنى الحمامات والفنادق والأرحاء ، واصلح **أسواقها وهذب بناءها**». (٣١) .

بعد استيلاء يوسف بن تاشفين على مدينة فاس شعر أن عليه إكمال مد سلطانه في مختلف الاتجاهات ، وهكذا سيطر على تلمسان وعلى مناطق أخرى من المغربين الأوسط والأقصى ، وكان بعد الاستيلاء على إقليم تامسنا قد تملك شواطىء المغرب الأقصى الأطلسية ، فالتفت نحو الشواطىء المتوسطية فانتزع ملكية طنجة وسبتة ، وشرع يتخذ لنفسه اسطولا خاصا (٣٢) .

والآن وقد عدا يوسف بن تاشفين سلطان دولة واسعة الأرجاء

بحث عن مجالات جديدة للتوسع ، وعن لقب يليق بـه وعن الشرعية أيضا .

كان هناك مجال واحد أمام يوسف للتوسع هو الأندلس ، وكان ذلك عملا مسوغا ومرغوبا به ، ولقد كان التوسع باتجاه المغـرب الأدنى مغامرة غير محمودة العواقب ، وكانت العـودة إلى الصـحراء غير واردة ، وتوجب على يوسف إشغال قواته القبلية في جبهة فيها جهاد ومنافع ، وكان مثل هذا ما واجهه قادة السلاجقة بعد الاستيلاء على خراسان ، وإيقاف رجال القبائل الصحراوية وسواها عن الأعمـال العسكرية المربحة كان أمرا لايمكن ليوسف تحمله ، ولعله مثله مثـل رجالاته من قادة المرابطين رأى من واجبه الجهـاد في سـبيل الله ، وتوفر هذا فقط في جبهة الأندلس ، مثلما راينا وقد تـوفر للتـركمان فقـط في الأراضي البيزنطية بعـد الاسـتيلاء على ديار المسـلمين في الشام والجزيرة والعراق وخراسان .

وكانت بلاد الأندلس بجبهاتها مـوائمة تمـاما لمقـاصد يوسـف والمرابطين ، وكما فعل بداة التركمان حين حاربوا في الشام والعراق والجزيرة حاربوا ضد الهرطقة ، وحين قـاتلوا بيزنطـة كان ذلك في سبيل الله ، ودار عيش وهجرة وسكن في المستقبل ، والشيء نفسه في الأندلس ، كان القتال في الداخل قتالا ضد حكام كلهم فساد وتقصير وظلم وفرقة وفتنة واضطهاد ، والقتال ضد النصارى كان جهـادا في سبيل الله .

ولهذا زاد يوسف من الاعتماد على العناصر الأندلسية في إدارته ، ولم يكتف بذلك بل إنه اشترى بعض النصارى وجند منهم مرتزقة في قواته كما استورد السلاح من الأندلس وأوربة وخاصة السـيوف ، ويبدو أن حكام الأندلس من ملوك الطوائف كانوا يرقبـون بقلق مـا كان يجري على أرض المغرب ، ورأينا من قبل أن أفضل المعلومـات عن حركة المرابطين حتى سـنة ٤٦٠ هـ تلك التـي دونهـا الأمير الأندلسي أبو عبيد البكري في كتابه المسالك والممـالك ، والبـكري لم

يرحل إلى المغرب بل استقى معلوماته مما وصل من المغرب إلى الأندلس .

جاء في ترجمة يوسف بن تاشفين لدى ابن خلكان أن كاتبه قال : « له أيها الملك هذا الكتاب من ملوك الأندلس يعظمونك فيه ، ويعرفونك أنهم أهل دعوتك وتحت طاعتك ، ويلتمسون منك أن لاتجعلهم في منزلة الأعادي فإنهم مسلمون ، وهم من ذوي البيوتات فلا تغير عليهم وكفى بهم من وراءهم من الأعداء الكفار ، وبلدهم ضيق لايحتمل العساكر ، فاعرض عنهم إعراضك عمن أطاعك من أهل المغرب » .

وتداول يوسف مع كاتبه حول شكل الجواب الذي سيبعث به فجاء حسبما يلي : « بسم الله الرحمن الرحيم ـ من يوسف بن تاشفين : سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، تحية من سالمكم وسلم إليكم ، وحكمه التأييد والنصر فيما حكم عليكم ، وإنكم بما بأيديكم من الملك في أوسع إباحة ، مخصوصون منا بأكرم إيثار وسماحة ، فاستديموا وفاءنا بوفائكم ، واستصلحوا إخاءنا بإصلاح إخائكم ، والله ولي التوفيق لنا ولكم ، والسلام » (٢٣) .

وهام التمعن في الفقرة الأخيرة من إجابة يوسف خاصة قوله « فاستديموا وفاءنا بوفائكم » .

فهنا تهديد مبطن وإنذار ، ولم يرد في الرسالة أدنى وعد بعدم التدخل في شؤون الأندلس ، لكن المسألة ارتبطت بالفرصة المناسبة وباستكمال الاعدادات البرية والبحرية .

وطور يوسف إدارة دولته الناشئة وضرب نقوده ، وكتب « إلى امراء المغرب واشياخ القبائل من زناتة ، والمصامدة وغمارة وسائر قبائل البربر فقدموا عليه وبايعوه ، فكسا جميعهم ووصلهم بالأموال ، ثم خرج معهم ليطوف على جميع أعمال المغرب ويتفقد

احوال الرعية ، وينظر إلى سير ولاتهم وعمالهم فيه ، فصلح على يديه بذلك كثير من امور الناس » (٢٤) .

وكان يوسف بن تاشفين حتى الآن « يدعى بالأمير ، فلما ضخمت مملكته واتسعت عمالته اجتمع إليه أشياخ قبيلته ، واعيان دولته ، وقالوا له : أنت خليفة الله في هذا المغرب ، وحقك أكبر من أن تدعى بالأمير ، بل ندعوك بأمير المؤمنين ، فقال لهم : حاشى لله أن نتسمى بهذا الاسم ، إنما يتسمى به خلفاء بني العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة ، لأنهم ملوك الحرمين مكة والمدينة ، وانا رجلهم ، والقائم بدعوتهم ، فقالوا له : لابد من اسم تمتاز به ، وبعدما أجاب إلى امير المسلمين وناصر الدين ، خطب له بذلك على المنابر ، وخوطب به من العدوتين ، وامر كتابه ان يكتبوا عنه في ذلك »(٢٥) .

وبات على يوسف بن تاشفين الآن الاتصال بالخلافة العباسية في بغداد والحصول منها على تفويض له بحكم المغرب واعتراف بشرعية سلطانه ، وكان كاتب الخلافة انذاك ابن موصلايا ، وهناك نسخة خطية من رسائل هذا الكاتب في تونس لم أستطع الوقوف عليها ، لكن اخبرت انها تحتوي على نصوص المراسلات مع يوسف بن تاشفين .

واعرف ايضا أن ابن تاشفين قام في مرحلة لاحقة بإرسال بعثة إلى بغداد قوامها ابو بكر بن العربي ، الفقيه المشهور وصاحب العديد من المصنفات من بينها العواصم من القواصم ، مع ابيه ، واودع ابو بكر بعض اخبار ما حدث معه في المشرق في مؤلفاته لاسيما في كتابه العواصم ، وكتب كتابا مفردا عن رحلته ، عثر على أجزاء منه ونشرت ، وكنت قد رايت في فاس نسخة كاملة من هذه الرحلة نسخت بخط ردىء في عدة دفاتر ، قيل لي وقتها انها نسخت عن نسخة خطية محفوظة في مكتبة الزاوية العياشية قرب فاس .

وطبعا حصل يوسف بن تاشفين على الاعتراف العباسي المطلوب

وقيل إن اخباره ارضت كبار الفقهاء في العراق وخاصة الامام الغزالي حتى روي أن مراسلات تمت بين الغزالي ويوسف ، وذلك على الرغم من أن المرابطين عارضوا نشر كتاب إحياء علوم الدين للغزالي إلى حد انهم أمروا باحراق نسخه .

ومن الواضح أن جميع ما عرضناه حتى الآن عن التاريخ المرابطي كان الهدف منه التوطئة للحديث عن دخول المرابطين إلى الأندلس وما نجم عن ذلك من نتائج في توحيد الأندلس ، ودفع خطر السقوط عنها ، وجعلها ولاية مغربية الأمر الذي نجم عنه نتائج خطيرة على صعيد الشمال الأفريقي والأندلس معا وعلى صعيد علاقات الغرب الاسلامي بأوربا الغربية .

لم تكن الاستعانة الأندلسية بقبائل البربر المغربية هي الأولى من نوعها ، فبصرف النظر عن المشاركة البربرية الفعالة في فتح الأندلس استمر تدفق البربر على هذه البلاد ، وازداد ذلك في القرن الرابع للهجرة العاشر للميلاد إثر الصراع بين قرطبة والمهدية ، واحتلال القوات الأندلسية لأجزاء هامة من اراضي المغرب الأقصى.

لقد حدث التدخل الأندلسي في أيام الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر ، واستمر أيام ابنه الحكم ، وشهدت الأندلس بعد وفاة الحكم تطورات سياسية خطيرة جدا تمثلت باستيلاء المنصور العامري على السلطة وحجره على الخليفة هشام بن الحكم.

والمنصور العامري هو محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر ، ينتمي الى قبيلة معافر الحميرية اليمنية ، وأمه سيدة أصلها من قبيلة تميم واسمها بريهة ، وقد ولد سنة ٣٢٨ هـ / ٩٤٠ م في قرية طرش ، موطن أجداده الذين دخلوا الأندلس في أيام فتحها ، وقد نشأ منذ صغره متميز النباهة اهتم بثقافته وعلومه ، طموحا ، أراد أول حياته أن يكون قاضيا لكن طموحه دفع به نحو ارتقاء المناصب ليكون سيد الأندلس بلا منازع (٢٦).

التحق محمد بن أبي عامر بمدينة قرطبة حاضرة الأندلس ودار خلافتها ، وكان الخليفة وقتها الحكم بن عبد الرحمن ، وكان هذا الخليفة قد تسلم الخلافة بعدما تقدم به السن ، ولم يحظ بولد الا بعد أمد طويل ، وانجبت له الولد السيدة صبح وكانت من أصل بشكنسي ، وحمل هذا الولد اسم عبد الرحمن ثم انجبت له هشام الذي سيكون آخر خلفاء بني أمية في الأندلس.

لم تطل الاقامة بابن أبي عامر في قرطبة حتى التحق بخدمة السيدة صبح ليشرف على إدارة أملاكها مع أملاك ولي

العهد ، وحظي ابن عامر باعجاب السيدة صبح واسعدها وادخل السرور على حياتها ، وكان كريما متلافا ، وقد تهيأت أمامه السبل ليترقى بالمناصب فاستلم ادارة السكة(٢٧) ثم ما لبث أن تولى وظائف أخرى منها رئاسة الشرطة الوسطى ، وبذلك عرض جاهه وتوثقت صلاته بالوزير الأول المصحفي وبغيره.(٢٨) .

وفي سنة ٣٥٩ هـ / ٩٧٠ م توفي الأمير الصغير عبد الرحمن ، فأسند لابن عامر ادارة أملاك أخيه هشام المؤيد ، وفي هذه الأثناء كلف ابن عامر من قبل الخليفة الحكم بالذهاب إلى المغرب لمرافقة وفد بربري كبير من زناتة على راسه يحيى بن علي بن حمدون ، وبذلك تعرف ابن عامر للمرة الأولى من حياته على قبائل المغرب الأقصى وكسب خبرة بشؤون الحرب والجيوش وقامت علاقات بينه وبين القائد غالب ، الذي كان فارس الأندلس واعلى العسكريين فيها شأنا (٢٩) .

ومع الأيام شعر الحكم بأعباء تقدمه بالسن وبثقل المرض ، فأراد أن يوصي بالخلافة من بعده ، وكان ابنه هشام ما يزال طفلا بدون مؤهلات ، ومع هذا أثر الحكم هواه في محبة ابنه فسماه في سنة ٣٦٥هـ / ٩٧٥م وليا لعهده ، مع انه كان بامكانه تسمية واحد من اله فيه الأهلية ، وتسمية هشام وليا لعهد هذا المسمى(٣٠) .

واستفاد ابن أبي عامر من بيعة هشام بولاية العهد نظرا لعلاقاته الوثيقة به وبأمه ، وتعاون ابن أبي عامر مع الوزير جعفر بن عثمان المصحفي ، وفي سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م توفي الخليفة الحكم ، وكتم نبأ وفاته ، وحاول كما ذكرنا من قبل غلمان القصر من الصقالبة خلع هشام وعدم بيعته ، ورد الأمر إلى الأمير المغيرة بن عبد الرحمن أخو الحكم(٣١) ولم تفلح خطة الصقالبة ، وتعاون المصحفي مع ابن أبي عامر على تصفية قوى الصقالبة الذين تحكموا بالدولة وذلك بعدما تمت بيعة هشام وقتل الأمير المغيرة.

وبعد هذا سعى ابن أبي عامر إلى التخلص من الوزير المصحفي فتحالف مع القائد غالب وصاهره ، وشاركه في عدة عمليات عسكرية

ضد الدول الأسبانية في الشمال ، وفي سنة ٣٦٧ هـ/ ٩٧٨ م صرف المصحفي عن عمله ، وأودع السجن مع أهله (٣٢) وظل يعاني من النكبة حتى توفي مسجونا.

وطبعا عندما عزل المصحفي حل محله ابن ابي عامر ، فعمل في سبيل تقوية سلطانه والتخلص من كل نوع من أنواع المعارضة بمختلف الوسائل من قمع وشراء للذمم ومؤامرات ، وأستحوذ على رضى الفقهاء والقضاة إنما بكل صعوبة ، ولم يبق أمامه غير القائد غالب واحتاج التخلص منه إلى جهد كبير وأستعدادات خاصة.

قام ابن عامر أولا بالحجر على الخليفة وعزل دار الخلافة ـ مدينة الزهراء ـ كليا ، وابتنى لنفسه مدينة سماها الزاهرة غدت مقر السلطة التي رست كلها بيد ابن ابي عامر الذي تلقب الآن بالمنصور ، وهو لقب له مضامين مهدوية ويمانية ، ولم يبق عليه سوى التلقب بإمرة المؤمنين والخلافة ، لكنه لم يقدم على هذه الخطوة لمخاطر ذلك آنذاك ، إنما مهد لذلك السبيل ، وخط سابقة الانتزاء على السلطة ومن ثم تمزيق الأندلس.

لقد كان ابن ابي عامر مجاهدا من الدرجة المثلى قاد اكثر من خمسين حملة ضد الدول الأسبانية في الشمال ، وهزم قوى هذه الدول وجعل ملوكها ينقادون إليه ، غير انه لم يقض على اي منها ، وتصاهر مع اكثر من ملك من ملوكها ، وهكذا مع ظهور بوادر الضعف على الأندلس وتمزقها انقض هؤلاء الملوك عليها وقادوا حملات مدمرة ضدها.

واهتم عدد من الباحثين بالحياة العسكرية الجهادية لابن ابي عامر ، ويروى أن ابن حيان ـ مؤرخ الأندلس الكبير ـ أوقف كتابا خاصا على أخبار حملات ابن ابي عامر ، وهذا الكتاب بحكم المفقود ، وفي مخطوط جغرافي تاريخي مجهول المؤلف اسمه ذكر بلاد الأندلس أتى المؤلف على اخبار حملات ابن ابي عامر جميعها لكن بشيء من الاختصار.

ونعود الآن نحو مسألة تصفية ابن ابي عامر للقائد غالب ، لقد

فعل هذا بفضل امتلاكه لقوات عسكرية خاصة بـه جندهـا وأشرف على تسليحها وقادها في حملاته ، وجاءت عناصر هذه القوات مـن المغرب الأقصى خاصة من قبيلة زناته ، ووصـلت إلى الأندلس على شكل قبائل وأفراد حتى بلغ تعدادهم الآلاف ، وتعلق المغـاربة بـابن ابي عامر لكرمه ولشدة اهتمامه بهم (٣٣) .

وهام جدا مسـألة اعتياد الأندلسـيين على التقـوي بـالمغاربة والاستعانة بهم ، لا بل إنه لمن المثير أن نعرف أن السيدة صبح وقد ضاقت باهمال ابن ابي عامر لها وانصرافـه عنهـا ، فبحثـت عن شخصية تستعين بها للتخلص من ابن ابي عامر ، فوقع اختيارهـا على زيري بن عطية المغـراوي الخـزري أول ملوك زناتـة بـالمغرب الأقصى ، فاتصلت به وعملت على ارسال الأموال ليأتي إلى الأندلس لازاحة ابن ابي عامر ، لكن هذه المؤامـرة كشـفها ابـن ابـي عامر ، وأرسل بالقوات إلى المغرب الأقصى فتمكنت من انزال هزيمة ساحقة بزيري بن عطية (٣٤) .

وكان القائد غالب قد ضاق بتصرفات ابن أبـي عامـر ، خـاصة تجنيده لرجالات قبائل زناتة ، فتحـالف مـع ملوك الشـمال مـن الاسبان ، لا بل هم بقتل ابن ابي عامر بيديه ، وجـرحه في وجهـه وابان بعض انامله ، ونجا منه ابن ابي عامر ، وأخذ بجمع قـواته وفي ٣٧١هـ / ٩٨١ م نازله وقامت معـركة شـديدة بين الطـرفين انجلت عن مقتل غالب وتمزق قواته (٣٥) .

وهكذا غدا ابن ابي عامر سيد الأندلس بلا منازع ، غير أنه ظـل عرضة للمؤامرات حتى أن ابنه عبد الله تآمر عليه ، فاعتقله وأعدمه. (٣٦) ولا شك أن المنصور بن أبي عامر قد حقق كل ما طمح إليه وأمن الحماية والمنعة للأندلس ، لكنه جاء في وقت كان المجتمع الأندلسي قد قطع فيه مراحل واسـعة نحـو الوحـدة والوئام والاكتفـاء الذاتي ، وكانت طـاقات اهـل البـلاد العسـكرية كافية ، غير أن المنصور ابعد الأندلسيين عن الميدان العسكري وأسقط العرب مـن الديوان واقتصر بالاعتماد على القبائل البربرية مـن زناتـه بشـكل

خاص ، فأخل هذا بالبنية العامة ، يقول الفتح بن خاقان « وانزل قبائل الأندلس باجازة البرابر ، واخمل بهم أولئك الأعلام الأكابر ، فإنه قاومهم بأضدادهم واستكثر من أعدادهم حتى تغلبوا على الجمهور ، وسلبوا عنهم الظهور ، ووثبوا عليهم الوثوب المشهور ، الذي اعاد أكثر الأندلس قفرا يبابا ، وملأها وحشا وذئابا ، واعراها من الأمان» (٣٧) .

وتحدث الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري في غرناطة وهو الذي عزله يوسف بن تاشفين ـ كما سيمر معنا ـ تحدث في مذكراته عن المنصور بن أبي عامر وسياسته العسكرية ونتائجها بقوله : « وتوقع المنصور من أجناده الاتفاق على بعض ما يخل بدولته ، إذا كانوا صنفا واحدا وتألبهم على معصية أمره ، متى أمر بما أحبوا او كرهوا ، فنظر من ذلك بعين اليقظة ، وسول له رايه ان تكون اجناده قبائل مختلفة واشتاتا متفرقة ، إن هم أحد الطوائف بخروج عن الطاعة غلبها بسائر الفئات ، مع احتياجه إلى تقويه عسكره ، والزيادة فيه بمن يستطيع على تخلل بلاد العدو وتدويخها متى شاء ، فاستجلب رؤساء البربر وحماتها وانجادها من بلغه فروسيته وشدته ، وتسامع الناس بالجهاد ، فبادر اليه من شرق العدوة من كان لهم من الاثار والمكارم والبأس على النصارى ما لاخفاء به : وبهم كان يصول ابن ابي عامر على العدو ، وهم كانوا العدة في الجيش والموثوق بهم عند اللقا ، ومعترك الوغا.....

فرتب ابن ابي عامر الرتب ، واظهر هيبة الخلافة ، وقمع الشرك ، وحض المسلمين عامة على الغزو ، فعجز عن ذلك رعية الاندلس، وشكوا اليه ضعفهم عن الملاقاة ، وشغلهم بالغزوات عن عمارة ارضهم ، ولم يكن القوم اهل حرب ، فقاطعهم على ان يشتغلوا بعمارة ارضهم ، ويعطوا من اموالهم كل عام ما يقيم به من الاجناد من يكفيهم ذلك ، على اتفاق ورضى منهم ، فضرب عليهم الاقطاع ، وحصل في الدواوين جميع اموال الناس ، وكسرها عليهم ، وفرض بينهم مالا يرتزق منه الجيش ، فبقيت تلك الاقطاع عليهم الى ان

عمت الاندلس عدة الثوار ، واتبعوهم على تلك الاثار ، ودابــه في ذلك إنما كان على ما وصفناه .....

فلما تمت الدولة العامرية ، وبقي الناس لا امام لهم ، ثار كل قائد بمدينته ، وتحصن في حصنه بعد تقــدمة النظــر لنفســه ، واتخــاذه العساكر ، وادخاره الاموال ، فتنافسوا على الدنيا ، وطمع كل واحد في الاخر ، وكذلك لايصح امر بين نفســين ، فــكيف ســلاطين كثيرة واهواء مختلفة(٣٨) ».

على هذا إن التدخل الاندلسي في شؤون المغرب الأقصى ، قد مهــد السبل لتحويل الأندلس الى ولاية مغربية ، وهكذا صــار كلمــا تغير الوضع السياسي في المغرب تغير بالاندلس ، ففي ايام زناته وحــكمها للمغرب ، تحكم الزناتيون بــالاندلس ، وعندمــا قــامت دولة لمتونــة ازاحت زناتة عن حكم المغــرب ، فــكان بــالتالي أن الت الأمــور في الاندلس الى لمتونة وبعد امد استطاع المهدي بن تومرت وخليفته من **بعده القضاء على لمتونة ودولة المرابطين بوساطة قبيلة مصمودة فما لبثت الأندلس أن غدت ولاية موحدية حكامها من مصــمودة ، وبعــد زوال ملك مصــموده وحلول المرينيين في ملك المغــرب الأقصى ، تغير الحال في الأندلس مجددا وظلت الأمور تسير على هذا المنوال حتــى سقوط غرناطة وطرد العرب من الأندلس.**

صحيح رأينا من قبــل ان عبــد الرحمــن الداخــل عزل الاندلس سياسيا عن بقية دار الاسلام ، وجعلها تتحمل بــطاقاتها لوحــدها مواجهة قوى اوربا الصليبية ، غير ان عبد الرحمــن اوجــد شرعية استقطب اهل الاندلس حولها بدلا من العصــبية القبلية والصراعات العرقية ، وفي ايام عبد الرحمن الثالث تحولت الشرعية الى خــلافة ، وتسارعت التحولات وتعمقت ، فجاء المنصور بن ابي عامر فــأوقفها وجلب المرتزقة البربر الى البلاد ، وبدد غطاء الشرعية ، لذلك مــا ان زالت الدولة العامرية كما قال الأمير عبد الله : « وبقــي الناس بــلا امام لهم ، ثار كل قائد بمدينته وتحصن في حصنه بعد تقــدمة النظــر لنفسه ، واتخاذه العساكر وادخاره الاموال ، فتنافسوا على الدنيا ،

وطمع كل واحد في الآخر ، وكذلك لايصح أمر بين نفسين ، فكيف سلاطين كثيرة وأهواء مختلفة »(٣٩) .

وإنه لأمر مثير ان نقرأ مقدمات سقوط الأندلس في سيرة أعظم حكام الأندلس واشدهم نكاية في العدو ، واكثرهم حنكة ودهاء : إنها حقائق التاريخ ، وغالبا ما كانت الحقائق مرة المذاق ، والفارق كبير بين عبادة البطل بعين غير مبصرة وبين بصيرة التاريخ : ومهما يك من أمر واجه المنصور بن ابي عامر منيته سنة ٣٩٢ هـ / ١٠٠٢ م وهو عائد من حملة جهادية في الشمال ، وتوفي في مدينة سالم ، وكان قد اتخذ لنفسه الاكفان من رزق كله حلال وجمع ما تعلق بثيابه من غبار في مغازيه ، واستدعى وهو على فراش الموت ابنه عبد الملك فاوصاه ونصحه وارسله لتسلم مقاليد الامور في قرطبة ، وقرر ان يكون ابنه الآخر عبد الرحمن وليا لعهد أخيه ، ثم استدعى قادة جنده وغلمانه فودعهم واوصاهم ، وقد توفي في ٢٧ رمضان ٣٩٢ هـ / ١١ ـ آب ١٠٠٢ م ، وكان يوم توفي « ابن خمس وستين سنة وعشرة اشهر .....فكانت مدة قيامه بالدولة منذ تقلد الحجابة الى أن توفي خمسا وعشرين سنة واربعة واربعين يوما ، وترك من الاموال الناضة بالزاهرة اربعة وخمسين بيتا ، وكان عدد الفرسان المرتزقين بحضرته ونواحيها ، الذين حارب بهم الحروب عشرة الاف وخمسمائة ، واجناد الثغور قريبا من ذلك ؟ (٤٠) .

وتسلم السلطة عبد الملك بن المنصور ، وحمل لقب المظفر بالله ، وقد نعى الى الخليفة المؤيد وفاة ابيه واخبره بتوليه تدبير الدولة مكانه ، فاقره الخليفة وساعده على النجاح بعمله وخلع عليه وكتب له عهدا بولايته ، « فاستوسق له الامر ، ولم يرد أحد ... طاعته واجتمع الناس على حبه »(٤١) .

ولم يكن عبد الملك مثل أبيه لغلبة « النبيذ عليه واستغراقه في لذاته (٤٢).

ومع هذا تابع الخطط الجهادية لأبيه وبذلك حفظ للأندلس التفوق العسكري والسياسي،واستمر ورود الزعماء من زناتة على الأندلس وظهرت بوادر الضعف على الكيان العامري ،وتعرض عبد الملك

لأكثر من ازمة ،وهكذا لم تطل مدته وقد توفي في السنة السابعة لحكمه « وقيل إنه مات مسموما ، وقيل إنه مات من علة الذبحة..! سنة تسع وتسعين وثلاثمائة»(٤٣) (١٠٠٩) .

واستحوذ على الملك اثر وفاة عبد الملك أخوه عبد الرحمن ، وكان لقبه شنجول ، وكانت أم شنجول ابنة شنجة (سانشوغارسيس الثاني) ملك بنبلونة ، ومن اسم شنجة نال عبد الرحمن لقبه ذلك انه « كان اشبه الناس بجده »(٤٤) وحصل عبد الرحمن من الخليفة هشام على التقليد بولاية الحجابة والانفراد بالسلطة « وتلقب للحين بالناصر ثم بالمأمون ، فكان يدعى بالحاجب الأعلى المأمون ناصر الدولة ، فنظر في الأمور نظرا غير سديد ، وانفق الأموال في غير وجهها ، واعان على كثير من الناس ، وبسط يده عليهم وأخذ اموالهم ، ونسب اليهم اباطيل من القول والفعل حتى قلق الناس به وابغضوه في الله ، وابتهلوا لله تعالى في الدعاء عليه » (٤٥) .

وبعد مضي شهر ونصف الشهر على ولايته طلب من الخليفة هشام « أن يوليه العهد من بعده وأن يتسمى بولي عهد المسلمين ففعل ذلك هشام معه لضعفه وسوء نظره ، ونقصان فطرته ، فولاه عهده ، فكان سبب انحراف اكابر الأندلس عن عبد الرحمن لماتبين لهم من سخف عقله ، وسرعته الى نقل المملكة عن خلفائها اليه »(٤٦).

من الصعب القول ان عبد الرحمن طمع ان يتملك الاندلس ليجمع حوله بحكم نسبه المسلمين والنصارى ، حيث يبدو انه كان غير متوازن فيه فسولة وبدون مؤهلات قيادية او عزيمة جهادية ، وكان اقرب الى الخلاعة والمجانة يعاشر رجال الشراب والغناء والضحك والتسلية واشرك معه الخليفة هشام في بعض هذه النشاطات ، واغضبت تصرفات عبد الرحمن الناس جميعا خاصة رجالات الدولة لانه عرضهم للمهانات حتى أنه امرهم بتغيير ازيائهم وشاراتهم واذلهم .

وفي سنة ٣٩٩هـ ١٠٠٩ م ثار في قرطبة محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ولقب نفسه بالمهدي ، فخلع الخليفة

هشام واستولى على الأموال ، وكان عبد الرحمن بن المنصور العامري غائبا في الشمال ، وعندما وصلته الاخبار قرر العودة الى قرطبة وفي الطريق تخلى عنه جنده وأعوانه لذلك بعد ما وصل الى احواز قرطبة القى عليه القبض ثم تم التخلص منه وبهذا زالت الدولة العامرية من الوجود .

ولم يتملك محمد بن هشام الكفاءة او القدرات على النهوض بالاندلس واعادة رونق الدولة والخلافة لهذا « لقبته العامة المنقش لهشاشته وطيشه وخفته ، (٤٧) وهكذا انتشرت الفوضى بالاندلس وزالت وحدتها السياسية وزالت الخلافة ، ولم تفوت دول الشمال الفرصة بالشروع بحرب استغلاب لاتعرف الرحمة وتدخلت هذه الدول ايضا في صراعات القوى الداخلية في الاندلس وسلف بنا القول أن الفترة التي تلت عصر الخلافة عرفت باسم عصر دول الطوائف ، واسس هذه الدول متغلبون عرب وبربر وصقالبة (٤٨) .

ودخل ملوك الطوائف في صراعات متواصلة وطمح بعض الملوك فيها بالتوسع لكن لم يسع واحد منهم لاحياء الخلافة باخلاص وفي سبيل اعادة الوحدة للبلاد ، وتابعت الأندلس في هذه الآونة لكن لبعض الوقت ازدهارها الاقتصادي،واهم من هذا الازدهار الفكري والحضاري ، وتعددت مراكز السلطة ، واختص كل بلاط بعدد من الشعراء والأدباء والعلماء والكتاب ، وكان هناك بذخ كبير وانفاق هائل وتميز العصر بكثرة المغامرين وبالأخذ بالانتهازية السياسية وهكذا انعدم الوفاء والشعور بقداسة الارض وحب الوطن ، واخذ الجميع بسلوك سياسي كان بعيدا كل البعد عن الاخلاق والمثل ، وتبارى ملوك الطوائف بالالقاب وكان هناك اكثر من خليفة .

قال صاحب المعجب يصف ما حدث : « واما حال سائر الاندلس بعد اختلال دعوة بني امية ، فان اهلها تفرقوا فرقا ، وتغلب في كل جهة منها متغلب ، وضبط كل متغلب منهم ما تغلب عليه ، وتقسموا القاب الخلافة ، فمنهم من تسمى بالمعتضد ، وبعضهم تسمى بالمأمون ، وأخر تسمى بالمستعين والمقتدر ، والمعتصم ، والمعتمد ،

والموفق ، والمتوكل » الى غير ذلك من الالقاب الخلافية ، وفي ذلك يقول ابو علي الحسن بن رشيق :

مما يزهدني في أرض اندلس
سماع مقتدر فيها ومعتضد

القاب مملكة في غير موضعها
كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد »(٤٩) .

وحين فقدت الأندلس وحدتها تبددت طاقاتها العسكرية وانشغلت جيوشها بالدفاع عن الحكام وبالفتن الداخلية ، وكانت الأندلس في عصر الخلافة تمتلك قدرات بحرية كبيرة جدا ، ففقدت الآن اساطيلها ، وحدث هذا في مطلع القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد ، الفترة التي انبعثت فيها الطاقات البحرية لدول اوربا خاصة دول مدن ايطاليا ، واندفع النورمان نحو فرنسا وسواها وزادت الروح الصليبية التهابا وحدة وتعصبا وفقد المسلمون السيطرة على البحر المتوسط ، ولم تقتصر آثار هذا الفقدان على الجانب العسكري والسياسي بل تعدته الى الجانب التجاري ثم الصناعي ، وكان لهذا اسوأ الآثار على ازدهار الاندلس وقدراتها على التماسك والصمود .

وخفت الضغوط الصليبية احيانا على ملوك الطوائف لدى موت واحد من كبار ملوك الشمال وحدوث خلافات حول وراثته من ذلك ما حدث اثر وفاة شانشو (شنجه) الكبير ، حيث انهار صرح الوحدة التي اقامها واقتسم اولاده الاربعة املاكه وهم : غارسيا ، وفرناندو ، واميرو ، وجونثالو ، وقام صراع بين هؤلاء وبرز من بين صفوفهم فرناندو صاحب قشتالة الذي استطاع سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م أن يستولى على مملكة ليون ، ثم قام منذ ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م بشن عدة حملات ناجحة ضد امراء المسلمين في سرقسطة وطليطلة وبطليوس كما استولى على عدد من القلاع والحصون واجبر بعض ملوك الطوائف على دفع الجزية والاتاوات له(٥٠) وتوفي فرناندو سنة ٤٥٨ هـ / ١٠٦٥ م فقام صراع بين

اولاده حول توزع املاكه واستطاع سانشو الثاني الذي كان من نصيبه مملكة ليون ان يهزم اخاه الفونسو السادس ، وبعدما اسره نفاه الى ديار المسلمين فالتجأ الى طليطلة ، وقد سلفت الاشارة الى هذه المسألة ، ومفيد ان نعود هنا لنبين أن الفونسو السادس امتلك بعد وفاة اخيه سانشو قشتالة وليون ثم ضم اليهما جيلقية ، ومن ثم اقلع في حرب ضروس ضد المسلمين الذين انغمس امراؤهم « في الملذات وصارهمهم الوحيد منافسة بعضهم بعضا في البذخ والترف ، وكانوا في حسد دائم مع بعضهم وحرب مستمرة بالخنجر والانغماس في الحضارة »(٥١) .

ومعروف ان الحضارة عند ما تغدو انغماسا في الملذات تفرغ من محتواها الاخلاقي وتصبح عرضة للسقوط بسرعة على ايدي القوى الهمجية ، وقام ابن الطقطقي صاحب الفخري في الاداب السلطانية يوصف درجة الحضارة التي وصلت اليها الخلافة العباسية وقت تعرضها لغزو هولاكو ، وتحدث عن الانغماس في الملذات ، ثم حكى عن واحد من امراء الجند الذين تصدوا لجيش هولاكو قال : « كنت في عسكر الدويدار الصغير لما خرج الى لقاء التتر بالجانب الغربي من مدينة السلام في واقعتها العظمى سنة ست وخمسين وستمائة ، قال : فالتقينا بنهر بشير من اعمال دجيل ، فكان الفارس منا يخرج الى المبارزة ، وتحته فرس عربي ، وعليه سلاح تام كأنه وفرسه الجبل العظيم ، ثم يخرج اليه من المغول فارس تحته فرس كأنه حمار ، وفي يده رمح كأنه المغزل ، وليس عليه كسوة ولا سلاح فيضحك منه كل من راه ، ثم ماتم النهار حتى كانت لهم الغرة ، فكسرونا كسرة عظيمة كانت مفتاح الشر ، ثم كان من الامر ما كان »(٥٢) .

لقد ملكت الهمجية الاسبانية الصليبية المتعصبة القدرة على الفتك بالحضارة الاسلامية والوجود العربي بالاندلس ، وكان فقط يمكن لقوة من السوية الحضارية نفسها مع التعصب أن تتصدى لها ، ووجدت هذه المؤهلات لدى لمتونة المرابطين ، لكن لمتونة ما لبثت أن

تأثرت بحضـــارة الأندلس أو تصـــادمت معهـــا ، وكان لذلك نتـــائج خطيرة .

لقد أخذت حرب الاستغلاب التي قادها الفونسو السادس سـمة صليبية واضحة ، شارك فيها متطوعون مـن كل طـرف اوروبـي ، وباركت البابوية هذه الحروب ودعمتها بصكوك الغفـران ، وهـكذا اشتعلت الحروب الصليبية على ارض الاندلس وامتدت الى صـقلية قبل أن تشتعل في أرض الشام ، ومع هذا امتزجت حرب الاستغلاب في الأندلس بشيء من المشاعر القومية أو الوطنية » فقد عد ملوك ليون أنفسهم ورثة الملوك القوط للأندلس قبل الفتح الاسلامي لهـا ونقـل أحد رسل الفونسو السادس الى الامير عبد الله صاحب غرناطة قول الفونسو :« انما كانت الاندلس للروم في أول الأمر ، حتى غلبهـم العرب والحقوهم بأنحس البقاع : جليقية ، فهم الآن عند التمـكن ، طامعين في أخذ ظلاماتهم »(٥٣) .

وكان الفونسو على بينة بأحوال حكام الأندلس وبتدهور احـوال الناس فيها ، وبهدف زيادة اضعاف البـلاد بنى خـطة في حـروب الاستغلاب ، فقد نقل عنه قـوله :« انا مـن غير الملة ، وكل الناس يشنأني ، فبأي وجه اطمع في اخذها ، ان كان من بـاب الطـاعة ، فأمر لايمكن ، وان كان من وجه القتال فيهلك فيها رجالي وتـذهب أموالي وتكون الخسارة علي اكثر مما نرجـوه إن صـارت الي ولو صارت لم تتمسك إلا بأهلها ، ثـم لا يؤمنون ، ولا مـن الممـكن ان نستبيح اهلها ونعمرها بأهل ملتي ، ولكن الراي ، كل الراي تهـديد بعضهم ببعض ، وأخذ اموالهم أبدا ، حتى ترق وتضعف ، ثم هـي تلقي بيدها اذا ضعفت ، وتأتي عفوا كالذي جرى بـطليطلة ، انمـا كان من فقر اهلها وتشتتهم ، مع اندبار سـلطانها ، وصـارت الي بلامشقة »(٥٤) .

والمثير للانتباه أن أمراء دول الطوائف كانوا على بينة بـأهداف الفونسو وخططه ومع هذا « كان الجميع يساير الأمـور ، ويدافـع الأيام ويقول : من هنا إلى ان تتم الأموال وتهلك الرعايا .... يأتـي

الله بالفرج وينصر المسلمين »(٥٥) وكان كل منهم يشترى رضى الفونسو ، ويطلب منه أن يكون معتدلا في مطالبه حتى لا تسقط دولتهم لآخر من ملوك الطوائف فيصبح قويا في وجه الفونسو ، فقد حاصر الفونسو غرناطة وطلب مبلغ خمسين الف مثقال مقابل انصرافه « على خير » فأجابه الأمير عبد الله :«إن ذلك لايقدر عليه ، وفيه من القطع لنا ما يفترصنا به ابن عباد ، فانه لو أخذ غرناطة قوي عنصره ، ولم ينطع لك ، فخذ ما نقدر عليه ، واترك رمقا لانستأصل من اجله ، وما تركت تجده عندنا متى ما طلبت » (٥٦).

لقد استنزف ملوك الطوائف أموال اهل الأندلس في شراء السلم من الفونسو وفي بذخهم غير المحدود ، ولعل الحكاية التالية تكفي في أن تكون شاهدا ، التقى المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية بفتاة من عامة الشعب فأعجب بها وخلبت عقله فتزوجها ، وكان اسمها اعتماد ، وتعرف عادة باسم روميكيا ،وقد « رات مرة نسوة من الممتهنات قد وضعن ارجلهن في معجن فيه طين لضرب اللبن ، فدفعها هذا الى البكاء ، فأثر ذلك في نفس المعتمد وسألها : ما الذي يبكيك ؟ فقالت له : اه إني لتعسة ، ومنذ انتزعتني من الحياة الحرة الطليقة المرحة ايام أن كنت انعم بكوخي الحقير ، وانا سجينة هذا القصر العابس ، اسيرة الحياة المقطبة ، مثقلة بسلاسل التقاليد وعادات القصر المملة ، انظر الى هؤلاء النسوة اللاتي عند شاطىء النهر ، وانظر الى ارجلهن منتعلات بالطين ، ليتني كنت عارية القدمين مثلهن اعجن الطين ، وليتني حرمت الغنى والسلطان ، واعطيت الحرية التي استطيع بها أن افعل ما اريد ، فأجابها وقد شاعت على شفتيه ابتسامة لطيفة : بل انك عما قليل ستستطيعين .

ونزل في اللحظة نفسها الى فناء القصر ، وامر باحضار مقدار عظيم من المسك والعنبر وبعض الاعطار ، ووضع ذلك كله في معجن ، وامر أن يمزج بماء الورد ، ويداف ويسحق ، الى أن صارت منه عجينة في حجم تلك التي كانت في معجن النسوة اللاتي كن يضربن اللبن ، ولما تهيأ له كل ما اراد من ذلك صعد الى اعتماد وقال لها :

لتتفضلي بالنزول الى فناء القصر انت وجواريك ، فـان معجـن الطين في انتظارك فنزلت الأميرة الى ساحة القصر ، وخلعـت هـي وجواريها نعالهن وصرن يعجن باقدامهن ذلك الطين المسكي المدوف وهن في مرح وسرور

ومما لا ريب فيه ان تحقيق هذه الرغبة قد كلف المعتمد ثمنا باهظا واموالا طـائلة ، وقـد كان في اسـتطاعته ان يغضي عن هـذه الحادثة »(٥٧) .

وقد تذكرنا هذه الحادثة بحادثة ميسون ابنة بحدل زوج معـاوية ابن أبي سفيان حين ضاقت ذرعا بحياة القصر ، غير ان الفارق كبير جدا فهذه جبل لها المسك والعنبر لتعبث به وتلك قالت :

ولبس عباءة وتقرعيني

احب إلي من لبس الشفوف

وتوالت المصائب على عرب الأندلس ، وعندما كان الضعف ينتاب الفونسو او يحتـاج الى المال والمؤن ، كان ملوك الطـوائف يهبـون لنجدته والتفريج عنه ، لذا حق له أن يتسمى بملك الملتين وان يحمـل لقب امبراطور ، وحدث في عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م أن حاصر مـدينة طليطلة ، وكان ذلك في فصل الشتاء وكان ذلك الشتاء قاسيا جـدا ، فيه اشتد البرد وكثر المطر مما سبب انقطاع المواصلات بين شـمال الأندلس وطليطلة الواقعة بالوسط ، وهكذا تعذر وصـول المؤن الى جيش الفونسو ، واصيب جيشه بمجاعة حقيقية ، وعندمـا اصـبح الفونسو في هذا الوضع المخيف هب ملوك الطوائف لقتـاله واغتنام الفرصة بدفعه عن طليطلة ذات الموقع الاستراتيجي الهام بل للتفريج عنه وعن جيوشه « ولولا اهتبال ملوك الطوائف بـاقامة مـرافقة ، واصغاؤهم الى هدر شقاقه لطار شعاعا ، وذهب ضياعا »(٥٨) .

وسقطت طليطلة ، ودخل الفونسو عاصمة القوط القديمة وانتهـت دولة بني ذي النون ، ورثى احد الشعراء طليطلة بقصيدة منها قوله :

طليطلة اباح الضد منها
حماها إن ذا نبأ كبير

محصنة محسنة بعيد
تناولها ومطلبها عسير

الم تك معقلا للدين صعبا
فذلله كما شاء القدير

واخرج اهلها منها جميعا
فصاروا حيث ساء بهم مصير

وكانت دار ايمان وعلم
معالمها التي طمست تذير

مساجدها كنائس اي قلب
على هذا يقر ولا يطير(٥٩) .

لقد غدت الآن طليطلة عاصمة لدولة قشتالة فانقلبت الموازين وتغير الوضع الاستراتيجي بالأندلس ، فمن قبل كان مقر هذه الدولة في اقصى الشمال ، أما الآن فبات في وسط الأندلس ، في موقع مسيطر على جميع انحاء شبه الجزيرة الايبيرية ، يقول ابن الكردبوس : « ولما حصل الطاغية الفنش لعنة الله بطليطلة ، شمخ بانفه ورأى أن زمام الاندلس قد حصل في كفة ، فشن غاراته على جميع اعمالها حتى فاز باستخلاص جميع اقطار ابن ذي النون واستئصالها ، وذلك ثمانون منبرا سوى البنيات (البلدات) والقرى المعمورات ، وحاز من وادي الحجارة الى طلبيرة وفحص اللج واعمال شنتمرية كلها ، ولم يكن بالجزيرة من يلقى اقل كلب من كلابه ، فعند ذلك وجه كل رئيس بالاندلس رسالة الى الفنش مهنئين ، وبانفسهم واموالهم مفتقدين وفي ان يشركهم في بلاده له عاملين ، ولاموالهم اليه جابين ، حتى ان صاحب شنتمرية حسام الدولة ابن رزين نهض اليه بنفسه ، وتحمل هدية عظيمة القدرسنية ، متقربا اليه ، وراغبا ان يقره في بلده عاملا بين يديه

فجازاة على هديته بقرد وهبه اياه ، فجعل ابن رزين يفخر بـه على سائر الرؤساء ويعتقد انه جنته مما كان يحذر من الفذش من وقـوع البأساء .

وانتحى الفذش انتخاء الجبابرة ، وانزل نفسه منازل القياصرة ، وداخله من الاعجاب ما احتقر به كل ماشي على التـراب ، وتسـمى بالانبراطور ، وهو بلغتهـم أمير المؤمنين ، وجعـل يكتـب في كتبـه الصادرة عنه : من الانبراطور ذي الملتين »(٦٠) .

واجمل ابن الكردبوس وصف علاقات الفـونسو السـادس مـع حكام الاندلس بقوله « واسـتحكم في المسـلمين طمعـه ، وصـح في قياسه الفاسد ان يستخلص جزيرة الاندلس لنفسه فلم يذم عن شـن الغارات ومواصلة الغزوات .

وصادف ايام ملكه نفاقا كثيرا بين المسلمين واختلافا عظيمـا ، وضعف بعضهم عن البعض الا بمعـونة الروم ، فبـذلوا للفذش مـا يحبه من الاموال ليعينهم على مناوئهم بانجاد الرجـال ،واللعين في اثناء ذلك لما بينهم من الفتنة مسرور ، وهم عن ذلك مشتغلون بشرب الخمور ، واقتناء القيان وركوب المعاصي وسماع العيدان وكل واحد منهم يتنافس في شراء الذخائر الملوكية متى طرات من المشرق ، كي يوجهها الى الفذش هدية ليتقرب بها اليه ويحظى دون مطالبه لديه ، الى أن ضعف مـن أولئك الثـوار الطـالب والمطلوب ، وذل الرئيس والمرؤوس وافتقرت الرعية ،وفسدت أحوال الجميع بـالكلية ،وزالت من النفوس الأنفة الاسلامية ،واذعن من بقي منهم خارج الذمـة الى اداء الجزية ،وصاروا للفذش عمالا يجبون له الأموال ،لايخالف أمره أحد ،ووكلوا أمور المسلمين الى اليهود ،فعاثوا فيهـم عيث الأسـود وجعلوهم حجابا ووزراء وكتابا .

وتطوف الروم في كل عام على الأندلس يسبون ويغنمون ويحرقون ويهدمون ويأسرون»(٦١) .

وبعدما صار الفونسو سيد طليطلة أخذ يتطلع بجدية نحو اشبيلية للاستيلاء عليها وازالة ملك آل عباد منهـا ، واتبـع في سـبيل ذلك

خططه المعروفة في التهديد واستنزاف الموارد ، واشعار الناس بعدم وجود منفذ ، وحاول ابن عباد دفع الفونسو السادس عنه فراسله وحاول شراء رضاه بالأموال والقلاع وغير ذلك ، وبعث اليه في احدى المناسبات برسول يهودي «يعرف بابن مشعل فقال له : كيف اترك مجانين (ج.ماجن) تسمى كل واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم وامرائهم : المعتضد والمعتمد ،والمعتصم ،والمتوكل، والمستعين ،والمقتدر ،والأمين ،والمأمون ، وكل واحد منهم لايسل في النب عن نفسه سيفا ، ولايرفع عن رعيته ضيما ولاحيفا ، قد اظهروا الفسوق والعصيان ، واعتكفوا على المغاني والعيدان ، وكيف يحل لبشر أن يقر منهم على رعيته أحدا ، وان يدعها بين أيديهم سدى»(٦٢) .

وكذلك بعث الفونسو الى المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية بوفد من عنده ليجبي منه الجزية ، وترأس هذا الوفد يهودي اسمه ابن شالب ، ونزل رجال الوفد «خارج اشبيلية ، فوجه اليهم المعتمد ابن عباد المال المعلوم مع بعض اشياخ اشبيلية ، منهم ابن زيدون (ابن الشاعر المشهور) وغيره ، فلما وصلوا الى خبائه واخرجوا اليه المال العين والسبائل ، قال لهم اليهودي : والله لاأخذ منه هذا العيار ، ولاأخذ منه الا مشحرا ، ولايؤخذ منه في هذا العام إلا أجفان البلاد ، وزاد في كلامه ونقص ، واساء الأدب ، فبلغ المعتمد خبره ، فدعا بعبيده وبعض جنوده ، وامرهم بالخروج لقتل اليهودي ابن شالب ، واسر من كان معه من النصارى ففعلوا ما امرهم به من ذلك .

فلما بلغ ذلك اذفنش ، اقسم بأيمان مغلظة ان لايرفع يده عنه وانه يحشد من الروم عدد شعر راسه ، ويصل بهم الى بحر الزقاق ، فكان ذلك .

وخرج اذفنش في جيش لايحصى كثره ، وافسد في الشرف (ربض اشبيلية) فسادا كبيرا ، وحرقه ، واجتاز عليه قاصدا حصن طريف ، فوقف على شاطئ بحر الزقاق ، والبحر يضرب ارساغ

فرسه»(٦٣) ومن هناك بعث برسالة فيها تحديات وقحة الى يوسف ابن تاشفين .

وكيف لايفعل هذا ولايشتط حيث لم يجد في الأندلس من يقاومه او يدفعه ، فقد«انتشر الروم على جميع الأقطار ، وعاثوا في جميع الأمصار ، وصارت لهم اقصى بلاد الاسلام مرتعا ، ولقد بلغ الروم ان اغاروا في ثمانين فارسا ممن لاخلاق لهم على نظر المرية ، فأخرج ابن صمادح قائدا من قواده ، ومعه من خيار جنده اربعمائة ، فلما التقوا بالعدو ،انهزموا، وما وقفوا ولا أقدموا»(٦٤).

والمثير للانتباه هنا إن المستعرض لتاريخ الأندلس حتى نهاية الفترة العامرية أن القوات المسلمة كانت تلقى في الشمال مقاومة عنيدة ، وان ملوك الشمال لم يلق أيا منهم السلاح ولم يستسلم **بل لم يتعد واقع الحال كما قالت العرب « هدنة على دخن».**

ويئس اهل الأندلس من ملوكهم فكان ان توجهوا بأبصارهم نحو المغرب الأقصى حيث يوسف بن تاشفين ، وقصدته وفود اندلسية «وشكوا اليه ما حل بهم من أعدائهم ، فوعدهم بامدادهم واعانتهم وصرفهم الى أوطانهم»(٦٥) .

وشدد الفونسو من ضغوطه على ابن عباد «وسأله أن يخلى له معاقل كان الموت عنده اولى من اعطائها ، فوجست نفسه منه بالجملة» (٦٦) .

وقال ابن الكردبوس «ولما تيقن كل من ثار وراس ، ولاسيما رؤساء غرب الأندلس كابن عباد وابن الأفطس ، مذهب الفذش فيهم وانه لايقنع منهم بجزية ولاهدية ، رأوا ان الرجوع الى الحق احق فاستصرخوا بالمرابطين ، واستنصروا بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، على ان ينخرطوا في سلكه ، ويدخلوا تحت ملكه ، وفتحوا له بابا الى الجهاد كانوا قد سدوه ، فأجابهم الى ما رغبوه ، ولم يخالفهم فيما طلبوه ، اذ كان في جهاد المشركين والذب عن حريم المسلمين ، فاستيقظ طلب النصر من منامه ، وتطلع بدر التأييد من خلال غمامه»(٦٧)

لم تكن الأمور بمثل هذه الدرجة من السذاجة ، وفي الحقيقة لم يرجع ملوك الطوائف قط الى جادة الصواب ، وابدا لم يروا أن الرجوع الى الحق أحق ، بل ارادوا الحفاظ على ملكهم من خلال حرب يخوضها الصديق ضد العدو فتضعفهما معا فتحصل الفائدة لهم ، فقد رام ابن عباد كسر الفونسو «بطوائف المرابطين وضرب بعضهم ببعض» (٦٨) .

غير أن يوسف بن تاشفين تنبه لهذا ، ربما بوساطة مستشارية من أهل الأندلس وأثر هذا التنبه على طبيعة المواجهة العسكرية بينه وبين الفونسو وعلى استثمارها ثم على مستقبل ملوك الطوائف .

ولم يرد يوسف على نداءات الاستغاثة بالاستجابة الفورية ، وكذلك فعل عندما بلغته رسالة الفونسو التي جاء فيها:

«لم يخف عليك ما عليه رؤساؤكم بالأندلس من التخاذل والتواكل والاهمال للرعية ، والاخلاد الى الراحة ، وانا اسومهم الخسف فأخرب الديار ، واهتك الأستار ، واقتل الشبان واأسر الولدان ، ولاعذر لك في التخلف عن نصرهم إن أمكنتك فرصة هذا ... فان كنت لاتستطيع الجواز فابعث الي ما عندك من المراكب لأجوز اليك ، وانا اقاتلك في احب البقاع اليك ، فإن غلبتني فتلك غنيمة جلبت اليك ، ونعمة مثلت بين يديك ، وان غلبتك كانت لي اليد العليا ، واستكملت الامارة ، والله يتم الارادة» (٦٩) .

وأخذ يوسف بن تاشفين يعد العدة للجواز الى الأندلس ، واقتضى الحال منه تأمين ما يكفي من القوات البرية للجواز والقتال ، وتأمين الأساطيل اللازمة لنقل القوات مع الأعتدة والمؤن والأسلحة وجلب الامدادت اذا لزم الأمر ، وهكذا» شرع في تجديد العساكر ووفورها ، وبعث الى الصحراء للمتونة ومسوفة وجدالة وغيرهم ، يعلمهم بما فتح الله عليه من ملك المغرب ، وطاعة أهله ، ويؤكد عليهم في القدوم اليه ، فوفد عليه منهم جموع كثيرة ، ولاهم الأعمال ، وصرف أعيانهم في مهمات الأشغال ، فاكتسبوا الأموال ، وملكوا رقاب الرجال ، وكثروا

بكل مكان ، وساعدهم الوقت والزمان ، وكثرت جموعهم وتوفرت عساكرهم ، وعظم ملك يوسف بن تاشفين ، وضم من جزوله ولمطه ومصمودة وقبائل زناتة جموعا كثيرة ، وسماهم بالحشم ، وضم طائفة أخرى من أعلاجه وأهل داخلته وحاشيته فصاروا جموعا كثيرة ، وسماهم الداخليين ، فاجتمع له في الطائفتين ثلاثة الاف فارس»(٧٠) .

ولم يكتف يوسف بهذا فقد وجد نفسه بحاجة الى السلاح والعتاد من الأنواع المستخدمة في الأندلس مع خبراء بشؤون القتال لدى الأندلسيين وأعدائهم ، ولهذا «بعث الى الأندلس برسم شراء العدة والات الحروب ، فاشتري له منها كثيرا » وامضى عاما في «اقتناء العدة واتخاذ السلاح واقتناء الأجناد واختيار الرجال فبلغ جيشه الى اثني عشر الف فارس ، كلهم نخبة أنجاد»(٧١) .

ولم يكتف يوسف بهذا بل تبادل الرسائل مع المعتمد بن عباد وغيره من ملوك الطوائف يطلب منهم جمع قواتهم وتوحيد طاقاتهم العسكرية لتجتمع اليه بعد عبوره الى الأندلس لقتال العدو ، وطلب يوسف من ابن عباد تسليمه الجزيرة الخضراء يتخذها قاعدة لقواته التي ستجوز الى الأندلس ، وجاء هذا الطلب بناء على نصيحة واحدا من كتابه اسمه عبد الرحمن بن أسباط ، وكان أندلسيا من أهل المرية ، فقد روي أنه قال له:« أيد الله الأمير تعلمون أن الأندلس جزيرة مقطوعة في البحر ، ويعمر المسلمون منها الثمن وسبعة أثمان يعمرها النصارى وهي ضيقة حرجة ، سجن لمن دخلها ، لايخرج إلا تحت حكم صاحبها ، وإن أنت جزت إليها وحصلت فيها ما يكون لك في نفسك شيء ، وهذا الرجل الذي استدعاك ما بينك وبينه مئات قديم ، ولاصداقة متصلة ، ويبقى إذا قضى الله الغرض من العدو أن يمسك بها ، والحال كما ترونه ، والنظر إليكم ، فاكتب إليه إنك لايمكنك الجواز إليه إلا ان يعطيك الجزيرة الخضراء ، فتجعل فيها ثقاتك واجنادك ، ويكون الجواز بيدك متى شئت » (٧٢) .

وكتب يوسف إلى المعتمد بن عباد يطلب منه التخلي له عن الجزيرة الخضراء وأن يخليها له ويكتب بذلك صكا عليه توقيعه مع شهادات رجال الدولة والقضاة والفقهاء ، وكانت ولاية الجزيرة الخضراء مسندة إلى الراضي يزيد بن المعتمد ، لهذا عارض تسليم الجزيرة الخضراء إلى المرابطين ، وكان الرشيد الابن الثاني للمعتمد قد عارض من قبل ايضا فكره الاستعانة بالمرابطين ، وأيده في هذا وجوه دولة اشبيلية ، فقد أشار هؤلاء على المعتمد « بمداراة الأذفنش ملك قشتالة ، وطلب معاهدته ، وعقد السلم معه على ما يذهب إليه من الشروط ، وكيف ما أمكن ، وأن ذلك أولى من تجويز المرابطين .

ثم إنه خلا بعد ذلك بابنه وولي عهده الرشيد أبي الحسن عبيد الله ، وقال له : يا عبيد الله إنا في هذه الأندلس غرباء بين بحر مظلم وعدو مجرم ، وليس لنا ولي ولا ناصر إلا الله تعالى ، وإن إخواننا وجيراننا ملوك الأندلس ليس لنا فيهم نفع ولا ترجى منهم نصرة ولا جنة إن نزل بنا مصاب ، أو نالنا عدو ثقيل ، وهذا اللعين أذفنش قد أخذ طليطلة من يد ابن ذي النون بعد سنة سبع وسبعين ، وعادت دار كفر ، وهاهو قد رفع رأسه إلينا ، وإن نزل علينا بكلكله ما يقلع عنا حتى يأخذ إشبيلية ، ونرى من الراي أن نبعث إلى هذا الصحراوي ، ملك العدوة نستدعيه للجواز ليدفع عنا هذا الكلب اللعين ، إذ لاقدرة لنا على ذلك بأنفسنا ، فقد تلف مجباتنا وتبددت اجنادنا ، وابغضتنا العامة والخاصة ، فقال له ابنه الرشيد : يا أبت أتدخل علينا في أندلسنا من يسلبنا ملكنا ويبدد شملنا ؟ فقال : يا بني ، والله لايسمع عني ابدا اني أعدت الأندلس دار كفر ، ولا تركتها للنصارى فتقوم علي اللعنة في منابر الاسلام مثلما قامت على غيري ، حرز الجمال والله عندي خير من حرز الخنازير » (٧٣) .

لاندري مدى صحة هذه الرواية اخذين بعين الاعتبار أن الحديث جرى على خلوة بين أب وابنه ، والمهم معرفته الآن هو أن المعتمد ابن عباد جمع (٧٤)« القاضي والفقهاء ، وكتب عقد هبة الجزيرة

الخضراء ليوسف بن تاشفين وتسليمها له بمحضر ذلك الجمع ، وبعث به إليه » (٧٥) .

وقام المعتمد بن عباد بمخاطبة جاريه المتوكل عمر بن محمد بن الأفطس ملك بطليوس ، وعبد الله بن حبوس ملك غرناطة ، وطلب منهما أن يرسل كل منهما قاضي حاضرة دولته وحين فعلا استحضر قاضي قرطبة وأضاف إلى هؤلاء القضاة وزيره ابن زيدون وبعث بهم وفدا للتعاقد مع يوسف بن تاشفين حول ترتيبات دخوله إلى الأندلس وبعد مفاوضات تم الاتفاق والتعاقد على أن تتصل الأيدي على غزو الروم بمعونته ، والا يعرض لأحدنا ببلده ولايقبل عليه رعيته ، ومن يروم الفساد عليه » . (٧٦) .

وتأهب يوسف بن تاشفين وقاد قواته نحو سبته للعبور إلى الجزيرة الخضراء ، وفعل هذا بعدما وردت عليه رسل المعتمد « تعلمه أنه يتأهب للجهاد ، وتعده بإخلاء الجزيرة الخضراء ، وأنه لايصل إلى سبتة إلا ويخمعها في يديه ، فلما وصل متأهبا لذلك ، بمن احتفل به من جيشه ، قدم رسله إلى المعتمد ..... فأمسكهم بإشبيلية مدة طويلة ، وأمير المسلمين في ذلك متقلق لورودهم ، فأرسل معهم من شيوخ اشبيلية من يقول له : تربص في سبتة مدة من ثلاثين يوما إلى أن نخلي لك الجزيرة فأجابهم إلى هذا » (٧٧).

لقد ظل المعتمد بن عباد حتى هذه الساعة يراوغ ويسيء الذوايا باتجاه يوسف بن تاشفين ، ونبه يوسف الى هذا وقيل له:« لم يجعلك ابن عباد في هذا الالتواء الا لأنه يريد أن يرسل الى الفونس يعلمه بقدومك ، ولعله يتأتى له منه ما يرغب ، ويسأله أن يعاقده على أن يهبه الجزية أعواما فإن فعل استجاش عسكره على الجزيرة ، ومنعك الجواز ، فاسبقه اليها ، وإن كان النصراني لايتأتى له ، أرسل اليك في الجواز» (٧٨) .

قيل هذا ليوسف ورسل ابن عباد عنده في سبته ، وبناء عليه « لما

انفصل الرسل عنه بذية التربص في إخلاء الجزيرة ثلاثين يوما ، جهز عسكرا مقدما من نحو خمسمائة فارس ، وارسلهم في اثرهم ، فلم تصل الرسل إلى الجزيرة اخر النهار إلا والعسكر في اثرهم قد عدوا ونزلوا بدار الصناعة ، فالتفت القوم إلى خيل قد ضربت محلتها ، لم يدر متى اقبلت ، ولم يصبح لهم إلا وطائفة اخرى بعدها يزيدون ويترادفون ، حتى اكمل العسكر كله على الجزيرة مع داود ابن عائشة ، واحدقوا حواليها يحرسونها ، ونادى داود بالراضي ، وقال له : وعدتمونا بالجزيرة ، ونحن لم نأت لأخذ بلدة ولا ضرر بسلطان ، إنما اتينا للجهاد ، فإما ان تخليها من هنا إلى وقت الظهر من يومنا هذا ، وإلا فالذي تقدر عليه فاصنع .

وخاطب امير المسلمين ابن عباد يعلمه بما صنع ويقول له : كفيناك مؤنة القطائع وإرسال الأقوات لأجنادنا كما وعدت ، فأرسل المعتمد لابنه الراضي في إخلائها لهم ، وحصل فيها داود ، وأتى الأمير إليها ودخلها ناظرا إليها ، ثم انصرف إلى سبتة إلى وقت إقباله » . (٧٩) .

إن ما حدث حتى الآن يساعد على تفسير ما اسفر عنه العبور الأول الأول ليوسف بن تاشفين إلى الأندلس ، وبعد هذا موقفه من ابن عباد وحقده عليه وعدم مسامحته له ، ولعدم وثوق يوسف بابن عباد تفقد الجزيرة الخضراء بنفسه ، وعلى الفور « شرع في بناء اسوارها ، ورمم ما تشعث من ابراجها وحفر الحفير (الخندق) عليها ، وشحنها بالأطعمة والأسلحة ، ورتب فيها عسكرا انتقاه من نخبة رجاله واسكنهم بها » (٨٠) .

وبسيطرة يوسف بن تاشفين على الجزيرة الخضراء حدث تبدل استراتيجي بشأن احد منفذي البحر المتوسط ، فقد كان العرب قد امتلكوا منفذ الزقاق (مضيق جبل طارق) من طرفيه في العصر الأموي ، وذلك بامتلاكهم لكل من سبتة وطنجة من جانب المغرب والجزيرة الخضراء من الجانب الأندلسي المقابل ، وبعدها حاولوا

فتح القسطنطينية للاستيلاء على المنفذ الآخر ، ومع تأسس الحكم الأموي بالأندلس امتلك هذا الحكم الجانب الأندلسي فقط ، ومنذ أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر تملك الحكم الأندلسي الممر كله بطرفيه ، إنما بعد انتهاء فترة الاستبداد العامري فقد الأندلسيون الطرف المغربي ، والآن مع حلول قوات المرابطين في الجزيرة الخضراء صار بحر الزقاق مغربيا ،(٨١)وآنذاك كان المسلمون يمتلكون مع بحر الزقاق مضيق مسينا قرب صقلية ، لكنهم سيفقدون السيطرة على هذا المضيق الهام بعد أمد قصير وذلك بسقوط صقلية للنورمان ، الأمر الذي سيكون له أبعد الآثار وأخطرها على مسار أحداث الحروب الصليبية وسيتضح ذلك أثناء الاعداد لما سيعرف باسم الحملة الصليبية الثالثة ، بعدما حرر صلاح الدين مدينة القدس ، ولنتذكر في هذا المقام أن دول المشرق كانت ذات إمكانات بحرية متدنية .

وكان بعدما عاد يوسف بن تاشفين إلى سبتة أشرف بنفسه على عبور قواته إلى الجزيرة الخضراء ، وقارب عدد هذه القوات العشرة الاف فارس ، وكان القائد العسكري لها داود بن عائشة ، وعندما تمت عملية العبور كان الفونسو السادس بعيدا في الشمال ملقيا الحصار على مدينة سرقسطة ، وكانت أجزاء من قواته منشغلة بحصار طرطوشة وبلنسية ، وقد فوجيء بأخبار المرابطين فأوقف أعمال الحصار وجمع إليه قواته ليتوجه نحو يوسف بن تاشفين (٨٢) .

وتحرك يوسف بن تاشفين وراء قواته نحو إشبيلية « فتلقاه ابن عباد على مرحلة من الجزيرة فسلم عليه ، فهم ابن عباد بتقبيل يديه ، فبادر لمعانقته ، وسأله عن حاله ، وانبسط معه في الحديث ، وهنأه ابن عباد بالسلامة ، ولحقت ضيافات ابن عباد ، فعمت جميع المحلة على حال كبرها ، وركب ابن عباد ودار بالمحلة ، ونظر إلى العسكر فرأى عسكرا نقيا ومنظرا بهيا ، فلم يشك أن ذلك الجمع لايخلو من بركة » (٨٣) .

وبعدما وصل يوسف بن تاشفين إلى إشبيلية اقام بها ثلاثة

أيام ، ثم ارتحل نحو مدينة بـطليوس ، لكن لماذا نحـو هـذه المدينة وليس نحو سرقسطة أو طرطوشة أو بلنسية ؟

لعل السبب هو أن المتوكل على الله ابن الأفطس صاحب بطليوس كان أول ملوك الطوائف كتابة إلى يوسف يستنجد بـه قـائلا « الا ناصرا لهذا الدين المهتضم ، الا حاميا لما استبيح من حمى الحرم ، وإنا لله على ما لحق عبيده من ثكل ، وعزه مـن ذل ، فإنهـا الرزية التي ليس فيها عزاء ، والبلية التي ليس مثلها بلاء(٨٤) .

ومن قبل هذا مـا كنت خـاطبتك أعزك الله بـالنازلة في مـدينة قورية(٨٥) أعادها الله للاسلام ، وأنها مؤذنة للجزيرة بالخلاء ، ولمن فيها من المسلمين بالجلاء ، ثم مازال ذلك التخاذل والتدابر يتـزايد حتى تخلطت القضـية ، وتضـاعفت البلية ، وتحصـلت بيد العـدو ومدينة سرية(٨٦) وعليها قلعة تجـاوزت حـد القـلاع في التحصـين والامتناع ، وهي مـن المدينة كنقـطة الدائرة تـدركها مـن جميع الجهات ، دائرة بنواحيها ، ويسـتوي في فيء الأرض بهـا قـاصيها ودانيها ، وما هو إلا نفس خافق ، ورمق زاهـق اسـتولى عليه عدو مشرك وطاغية منافق ، إن لم تدركوها بجماعتكم عجالا ، وتبـادروا ركبانا ورجالا ، وتنفروا نحوها خفافا وثقالا ، ومـا أحضـكم على الجهاد بما في كتاب الله ، فإنكم له أتلى ، ولا بما في حـديث رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنكم إلى معرفته أهدى » (٨٧) .

على هذا جاء يوسف بن تاشفين إلى الأندلس للدفـاع عن ثغـور مملكة ابن الأفطس ، ولهذا توجه إلى بطليوس (وهي منطقـة تقـع الآن على مقربة من الحدود البرتغالية) لقد جاء للتفـريج عن هـذه المملكة ولدفع العدو عنها ، وليس للتوغل داخـل الأراضي التـي غلب عليها الفـونسو ، ويؤكد هـذا التعليل مـا ذكره الأمير عبـد الله في مذكراته ، فبعدما حل يوسف بـن تـاشفين بـأرض الأندلس وأثناء وجوده بإشبيلية راسل ملوك الطوائف للالتحاق به ومعهم قـواتهم ، ففعلوا باستثناء المعتصم ابن صمادح صاحب المرية حيث بعث بابنه

وبقي هو « متربصا ليرى كيفية الأمر ومخرجه مع الروم ، واعتذر بكبر السن مع الضعف » .

وتحدث الأمير عبد الله عن خروجه من مملكته للالتحاق بيوسف ابن تاشفين وانه التقى به في الطريق إلى بطليوس وقال : « ورأينا من اكرامه لنا وتحفيه بنا مازادنا ذلك فيه رغبة ، لو استطعنا أن نمنحه لحومنا فضلا على أموالنا ، ولقينا المتوكل بن الأفطس محتفلا بعسكره ، كالمرغب في الجهاد ، قد أعمل جهده ووطن على الموت نفسه ... والعجب في تلك السفرة من حسن الذيات ، وإخلاص الضمائر ، كأن القلوب إنما جمعت على ذلك » (٨٨)

هذا من جهة يوسف بن تاشفين أما من جهة الفونسو السادس فقد عاد إلى طليطلة ، ومن هناك حشد قواته كما تلقى نجدات من المناطق الشمالية ومن فرنسا وسواها فاجتمع لديه أعداد كبيرة من المقاتلين ساروا تحت راية الصليب وبمباركة بابوية ، وقد بالغت المصادر العربية في تقدير تعداد القوات الصليبية ، يقول صاحب الحلل الموشية « واحتفل ـ الفونسو ـ في الاستعداد ، وخرج ومعه ثمانون الف فارس لابسين الدروع دون غيرهم حتى انتهى إلى فحص الزلاقة ، وكان عسكر المسلمين يناهز خمسين الف فارس ، اربعة وعشرون الفا من فرسان الأندلسيين مابين مدرع ولابس ، ومثلها او اكثر منها مرابطون واهل العدوة » (٨٩)

وارى في هذه الرواية مبالغة كبيرة ، وسبق أن نقلنا عن روض القرطاس أن تعداد المرابطين كان عشرة آلاف ، ونقلنا من قبل عن صاحب الحلل نفسه أن تعداد جيش يوسف بن تاشفين وصل إلى اثني عشر الف فارس ، ولا يعقل أن يجلب يوسف إلى الأندلس كل ما ملكه من قوات ، وهكذا نجد الحميري صاحب الروض المعطار يقول في مادة « زلاقة » اختار الفونسو ممن اجتمع إليه انجادهم « وقال حين نظر إلى ما اختاره من جموعه : بهؤلاء أقاتل الجن والأنس ، وملائكة السماء ، فالمقلل يقول : كان هؤلاء

المختارون من أجناده اربعين الف دارع ، ولابد لمن هـذه صـفته أن يتبعه واحد أو اثنان ، وأمـا النصـارى فيعجبـون ممـن يزعم ذلك ويقوله ، واتفـق الكل أن عدة المسـلمين كانت أقـل مـن عدة المشركين » .

والذي أراه أن عدد المسلمين لم يتجاوز العشرين الف مقاتل وأن عدد الصليبيين زاد على هذا العدد قليلا ، لكن ليس اكثر مـن خمس وعشرين الفا ، ونزلت القوات الاسلامية قرب أسـوار بـطليوس ، فهي جاءت للتفريج عن أراضي هـذه الدولة ، وهناك وردت الأخبـار بزحف الفونسو نحـوها على رأس جيش كبير ، يقـول الأمير عبـد الله : « وتلومنا ببطليوس أياما حتى صح عندنا اقبال الفـونسو في حفله ، يروم الملاقاة ، ويظن انه يهزم الجيش لقلة معرفته به قبـل ، وساقه القدر إلى أن توغل في بلاد المسلمين ، وابعـد عن أنصـاره ، ونحن بازاء المدينة متربصون ، إن كانت لنا فيهـا ونعمـت ، وإن لم تكن كانت وراءنا حرزا ومعقلا نأوي إليها ، وامير المسـلمين يدبـر هذا الأمر بحسن رأيه ، ويلتوي عسى تقع الملاقاة بتلك الناحية ، دون أن يحوج إلى التوغل في بلادهم ، وهم دخلوا الأندلس لا يعرفون من لهم أو عليهم ، ورجـا بـأن يكون الرومـي لا يخـرج إليه أحد فينصرف طريقه ،ويكفي الله المؤمنين القتال»(٩٠)على هـذا تمنى يوسف بن تاشفين عدم زحف الفونسو نحـوه ،لكن الفـونسو ركب رأسه وساق قواته مسافة واسعة ،وجاء بعدما اكل الطـريق قـواته ليقاتل قوما اتخذوا موقف الدفاع في متسع من الوقت والمكان ،وكتب الفونسو الى يوسف يقول :« هاانا قـد اقبلت اريد مـلاقاتك ،وانت تتربص وتختبىء » (٩١) .

وكان من المتوجب على المسلمين مهاجمة الفونسو قبل ان تـرتاح قواته وتتخذ معسكرا خاصا بها ، لكن يوسف لم يفعل هذا ، وترك الجيش المعادي يعسكر على مسافة ثلاثة أميال من معسكره ، وكتب يوسف إلى الفونسو كتابا « يدعوه فيه إلى الجـزية أو الاسـلام أو

الحرب ، فلما وصل كتابه إلى الفونسو أدركته الأنفة وداخله الكبر وقال للرسول: قل للأمير لا تتعب نفسك أنا أصل إليك »

وجاء في كتاب يوسف إلى الفونسو السادس: « وقد بلغنا يا أذفذش أنك دعوت إلى الاجتماع بك وتمنيت أن تكون لك فلك تعبر البحر عليها إلينا ، فقد أجتزناه إليك ، وجمع الله في هذه العرصة بيننا وبينك ، وسترى عاقبة دعائك (ومادعاء الكافرين إلا في ضلال) ـ سورة الرعد ـ الآية: ١٤

فلما وصل الكتاب إلى أذفنش وسمع ما كتب به إليه جاش بحر غيظه ، وزاد في طغيانه وكفره ، وقال أبمثل هذه المخاطبة يخاطبني ، وأنا وأبي نغرم الجزية لأهل ملته منذ ثمانين سنة ، وأقسم أن لا يبرح من مكانه الذي نزل فيه ، وقال: يزحف إلي فإني أكره أن القاه قرب مدينة تعصمه ، وتمنعني منه ، فلا أشفي نفسه بقتله ، ولا أبلغ أملي فيه وبيني وبينه هذا البسيط المتسع ، فأعلم السفراء أمير المسلمين بانتخائه وما أظهر من طغيانه وكبريائه » (٩٢) .

وأثناء تراشق الرسائل بين المعسكرين وتبادل الوفود كتب الفونسو « إلى أمير المسلمين مكرا منه يقول: إن غدا يوم الجمعة ولا نحب مقاتلتكم فيه لأنه عيدكم ، وبعده السبت يوم عيد اليهود ، وهم كثير في محلتنا ، ونحن نفتقر اليهم ، وبعده الأحد عيدنا فنحترم هذه الأعياد ، ويكون اللقاء يوم الاثنين ، فقال أمير المسلمين: اتركوا اللعين وما أحب » (٩٣) .

وحذر ابن عباد يوسف بن تاشفين ، ويلاحظ أن يوسف اتخذ معسكرا خاصا به بعيدا عن معسكر الأندلسيين الذين عسكروا في وجه جيوش الفونسو ، فقد عسكر يوسف خلف تلة في تلك المنطقة ، ويبدو أن المسلمين صدقوا ما كتب به إليهم الفونسو ، وفقط المعتمد أتخذ الاحتياطات اللازمة وبث العيون والطلائع وأمضى الليل يقظا خشية هجوم مفاجيء ، وجاء فجر الجمعة الثاني عشر لرجب الفرد سنة تسع وسبعين وأربعمائة(٩٤) » (٢٣ ـ تشرين أول ١٠٨٦ م) دون قيام هجوم ليلي فمال المسلمون إلى الراحة مع إبقاء قوات الاستطلاع واتفاق على خطة القتال ، أنما خطة دفاعية حيث يرجح أن المسلمين لم يفكروا بمهاجمة الفونسو وقواته ، وفي صباح يوم الجمعة استعد الفونسو للهجوم « وارتقى في ربوة مع جماعة زعماء قومه ليبصر أعداد جيوشه ، فأعجبه ما رأى من كثرتهم ولمعان دروعهم...فعند ذلك تقدم بجيشه قاصدا محلة المسلمين فأقبلت طلائع ابن عباد تنادي

وتقـول إن الروم في أذيالنا ، والناس على طمـأنينة ، وقـد كانوا اتفقوا على أن يكون المعتمد بن عباد في قلب المقدمة ، والمتوكل بـن الأفطس في ميمنتها ، وأهل شرق الأندلس في ميسرتها ، وسائر أهل الأندلس في الساقة ، والمرابطون وأهل العدوة كمائن متفرقة تخـرج من كل جهة عند اللقاء.

فلما علم ابن عباد بقـدوم الطـاغية عليه بـادر الركوب على غير تعبئة ولا أهبة ، وغشيتهم خيل العدو كالسـيل ، وعمتهـم كقـطع الليل ، وظنوا أنه وهية لا ترقع ، فوافق محلة ابن عبـاد في طـريقه بأهل أشبيلية وسائر عماله ، فوقعت بينهـم حـروب صـعبة كانت الدائرة فيها على أهل أشبيلية ، استأثر الله فيها بأرواح شهدت لها الرحمة وخطبتها الجنة ، وخُرج ابن عبـاد بجـراحات وأبلى في ذلك اليوم بلاء حسنا....قال ثم ثاب العسـكر مـن المسـلمين لأنفسـهم وحملوا على محلة أذفنش حملة صادقة.

وقد كان أمير المسلمين يوسف بن تـاشفين على حين غفلة ، ولم يكن عنده علم بمـا وقـع ، إذ كانت محلتـه بعيدة عن محلة ابـن عباد ، حتى بعث إليه ابن عباد كاتبه ابن القصيرة فأخبره ، فـركب وأحدق به زعماء لمتونة ، وكبراء صنهاجة وسائر عسكره »(٩٥) .

واحتاج ايصال الخبر إلى معسكر يوسـف بـن تـاشفين بعض الوقت ، وهدر المزيد من الوقت في ركوب القوات المرابطية واتخاذها الوضع القتالي ، يضاف إلى هذا أن يوسـف تبـاطىء في ارسـال النجدات إلى ابـن عبـاد ، ولعله أراد التخلص مـن القـوات الأندلسية ، قال ابن الكردبوس: « فأعلم امير المسـلمين بـانهزام الرؤساء فقال أتركوهم قليلا للفنا فكلا الفريقين من الأعداء(٩٦)ومع هذا بعث بعد حين بعدد صـغير مـن الجند للوقـوف إلى جـانب الأندلسيين والتفريج عنهم ، ويبدو أن الفونسو قد تصور انه اشتبك بالقتال ضد جميع القوات المسلمة ولم يعرف بوجود معسكر منفصل للمرابطين ، ولهذا شدد الضغط على القوات الأندلسـية واسـتنفد طاقاته ضدها ولم يتخذ ما ينبغي من احتياطات ، لهذا ما أن وصلت

طلائع القوات المرابطية حتى تغير التوازن وفيما الحال هكذا كان يوسف بن تاشفين قد بعث بالجسم الأعظم من قواته لتقوم بحركة التفاف وتهاجم معسكر العدو ، وتمكنت القوات المرابطية بيسر من ذبح المدافعين عن المعسكر الصليبي والقاء النار فيه ، وفوجيء الفونسو وقواته ، وتمزق الجيش الفرنجي بعدما حاول الفونسو ارسال بعض كتائبه نحو المعسكر ، وفي هذا الوقت التقت القوات المرابطية بالقوات الأندلسية ، فطوقت القوات الصليبية ، ومع هذا جمع الفونسو بقاياه وصمد وقاتل بشراسة ، فقام يوسف بتوجيه حرسه الشخصي من مقاتلي السودان فقصفوا صفوف الصليبيين واصيب الفونسو بفخذه بجراحة كبيرة ، وحدث هذا ورجالات الفونسو « كلوا وثقلهم السلاح مع بعد المسافة » فانهزموا « فاقتفى المسلمون آثارهم وركبوهم بالسيف ، ومات من جيشهم خلائق وتبددوا في الطريق ، فمن بين قتيل، وميت مثقل صريع » (٩٧) وتسلل الفونسو من بين الجرحى ومعه عدد ضئيل من جنده وهم جميعا مثقلين بالجراح ، وكما بالغت المصادر العربية في تقدير عدد القوات الصليبية بالغت في تعداد خسائر هذه القوات واوحت أن جيش الفونسو قد دمر وابيد ، وتحدث الأمير عبد الله عن الخسائر الفادحة التي لحقت بالصليبيين وقال: « ولم يفقد من المسلمين إلا الأقل ، وانصرف أمير المسلمين راجعا إلى اشبيلية على حال سلامة ونصر»(٩٨) ويعني هذا أن القوات المسلمة لم تطارد فلول العدو ولم تحاول استثمار النصر المبين الذي احرزته ، وكان اقل ما هنالك محاولة استرداد طليطلة ، فلماذا حدث هذا؟

الشبه هنا شديد بين ما حدث في معركة منازكرد وهذه المعركة ، فالمعركتان كانتا من النوع الدفاعي ولم يمتلك المسلمون اية خطط للتوسع او الهجوم ، فبعد انقضاء معركة منازكرد لم يحاول الب ارسلان حتى إسترداد المواقع الشامية التي قد استولى عليها اسيره الامبراطور رومانوس دايجينوس ، وهنا في الأندلس جاء يوسف بن تاشفين للتفريج عن بطليوس ، ولم يأت لاستعادة

طليطلة أو غيرها ، يضاف الى هذا أنه كان من عادات لمتونة عدم مطاردة فلول المنهزمين من أعدائهم ، قال البكري لدى حديثه عن عادات الملثمين القتالية «ومن فر أمامهم لم يتبعوه» (٩٩) وطبعا لم تقم القوات الأندلسية بأعمال المطاردة أو محاولة استرداد طليطلة لعدم توفر الامكانات ، ولخوف كل واحد من ملوك الأندلس على ملكه ، ويمكن ان نضيف معرفتهم أكثر من سواهم بامكانات الأعداء العسكرية ، فنحن سنجد بعد وقت ضئيل معاودة الفونسو حملاته على المسلمين ومن ثم الاستنجاد ثانية بيوسف بن تاشفين .

ويستوحى تأييد لهذا مما رواه صاحب الحلل الموشية لدى حديثه عن فرار الفونسو قال :« ففر ...وسيوف المسلمين تتبعه حتى لجأ الى ربوة عالية اعتصم بها لتعذر مرتقاها ، وأحدقت بها الخيل ، فقال لهم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين : الكلب اذا ارهق لابد أن يعض قد سلم الله المسلمين من معرته ، ولم يقتل منهم الا القليل ، فان هجمنا على هؤلاء ابلوا بلاء عظيما ، ولكن اتركوهم ولاحظوا حالهم ، فلما جن الليل فروا وأصبحوا يوم السبت فلم يوجد لهم أثر ، ثم ثنى أمير المسلمين عنانه ، فنزل الناس بنزوله ، وقد أبان الله بصارمه تلك الشوكة ، واستأصل أولئك الجموع المشركة»(١٠٠) .

ومع هذا فعند الحميري صاحب الروض المعطار روايات وآراء جديرة بالاعتبار ، قال الحميري :« ولما انحاز الطاغية بشرذمته جعل ابن عباد يحرض على اتباع الطاغية وقطع دابره ، فأبى ابن تاشفين واعتذر بأن قال : إن اتبعناه اليوم لقي في طريقه أصحابنا المنهزمين راجعين الينا منصرفين فيهلكهم ، بل نصبر بقية يومنا حتى يرجع الينا أصحابنا ، ويجتمعون بنا ، ثم نرجع اليه فنحسم داءه ، وابن عباد يرغب في استعجال اهلاكه ويقول : إن فر أمامنا لقيه أصحابنا المنهزمون فلا يعجزون عنه ، ويوسف مصر على الامتناع من ذلك ، ولما جاء الليل تسلل ابن فرذلند ، وهو لايلوي على شي ، وأصحابه يتساقطون في الطريق واحدا بعد واحد من أثر جراحهم ، فلم يدخل طليطلة الا في دون المائة .

وتكلم الناس في اختلاف ابن عباد وابن تاشفين ، فقالت شيع ابن عباد : لم يخف على يوسف أن ابن عباد أصاب وجه الرأي في جلته ، لكن خاف أن يهلك العدو الذي من أجله استدعاه فيقع استغناء عنه ، وقالت شيع يوسف : إنما أراد ابن عباد قطع حبال يوسف من العود الى جزيرة الأندلس ، وقال آخرون : كلا الرجلين أسر حسوا في ارتغاء ، وإن كان ابن عباد أحرى بالصواب»(١٠١) .

المهم ان سوء الذوايا وانعدام الثقة بين الفرقاء والحرص على الملك ضيع على المسلمين مكاسب هذا النصر المؤزر ، وهكذا تبدد الوقت وضاعت الفرصة ، قال صاحب الحلل الموشية :« ولما قضى الله بهذا الفتح الجليل ، والصنع الجميل ، أقام المسلمون في جمع اسلابهم ، وضم عددهم مدة أيام ، فامتلأت أيديهم بالغنائم الوافرة والسبي الكثير ، واكتسب الناس فيها من آلات الحروب والأموال وسيوف الحلي ، ومناطق الذهب والفضة ما أغناهم .

وكان يوما لم يسمع بمثله من اليرموك والقادسية ، سياله من فتح ما كان أعظمه ، ويوم كبير ما كان أكرمه ، فيوم الزلاقة ثبت قدم الدين بعد زلاقها ، وعادت ظلمة الحق الى اشراقها ، نفست مخنق الجزيرة بعض التنفس ، واعتزبها رؤساء الأندلس ، فجزى الله امير المسلمين ، وناصر الدين ابا يعقوب يوسف بن تاشفين ، أفضل الجزاء ، بما بل من ارماق ، ونفس من خناق ، ووصل لنصر هذه الجزيرة من حبل وتجشم الى تلبية دعائها ، واستبقاء ذمائها من حزن وسهل حتى هزم على يده أعداء الله المشركون ، وظهر أمر الله وهم كارهون » (١٠٢) .

وعاد يوسف الى اشبيلية ومعه ملوك الطوائف ، وقد شعر هؤلاء الملوك بتزلزل مواقعهم خاصة في أعين شعوبهم ، وانهم شبه تابعين ليوسف بن تاشفين ، يقول الأمير عبد الله :« ولما انقضت غزوته تلك جمعنا في مجلسه ـ أعني رؤساء الأندلس ـ وأمرنا بالاتفاق والائتلاف ، وأن تكون الكلمة واحدة ، وأن النصارى لم تفترصنا

الا للذي كان من تشتتنا واستعانه البعض بهم على البعض، فأجابه الكل أن وصيته مقبولة وان ظهوره مما يجمع الكل على الطاعة والجري الى الحقيقة» ثم تحدث عن شكاوى قدمها بعض الحكام ضد بعضهم بعضا وعن موقف يوسف بن تاشفين من ذلك كله ، ثم أخذ يوسف يعد العدة للعودة مع قواته الى المغرب ، «وقد اطلع عيانا وسماعا من اختلاف كلمتنا ما لم ير وجها لبقائنا في الجزيرة ، وأنس الجميع ، ولم يتربص في البلاد ألا يوحش سلاطينها مما يتوقعونه من انحياش رعيتهم اليه ، فكل من شكا اليه ذلك الوقت من رعيته يقول له : لم نأت لهذا ، والسلاطين أعلم بما يصنعوه في بلادهم ، حتى ازداد بذلك محبة الى ما كان عليه في قلوبنا ، واليه استنامة وميلا ، ورجع الكل الى وطنه» (١٠٣).

وقيل الكثير عن الأسباب التي دعت يوسف الى العودة الى المغرب ، من ذلك ما نقله صاحب الحلل الموشية :« ولما فرغ من وقعة الزلاقة وانصرف أهل الأندلس الى بلادهم ، ورد عليه خطب أوجعه ، ونبأ أفجعه بموت ابنه أبي بكر سير ، فتعجل إيابه من العدوة وصدره ، وقد قضى في عدو الملة وطره ، »(١٠٤) .

وقيل السبب الذي عجل بعودة يوسف هو موت أبي بكر بن عمر وتحرك ابنه ابراهيم ، ولقد عالجنا مسألة الوفاة من قبل ، يضاف الى هذا أن الزلاقة وقعت سنة٤٧٩هـ وذهبت المصادر التي دحضنا رواياتها الى ان ابا بكرقد توفي سنة ٤٨٠هـ ، وقد تحدث صاحب روض القرطاس عن عودة يوسف بن تاشفين فقال :« واتصل بأمير المسلمين يوسف ...وفاة ولده أبي بكر ، وكان تركه مريضا بسبتة فاغتم لذلك وانصرف راجعا الى العدوة بسبب وفاة ولده ، ولولا ذلك لم يرجع ، فجاز الى العدوة ودخل حضرة مراكش ، فأقام بها الى سنة ثمانين وأربعمائة ، فخرج في شهر ربيع الآخر منها يتطوف على بلاد المغرب ، ويتفقد أحوال الرعية ، وينظر في أمور المسلمين ويسأل عن سير عماله في البلاد وقضاته» (١٠٥).

ويرجح ان جولة يوسف على أعماله كانت روتينية ، أو انها

ارتبطت بتفجر مشاكل خطرة مع الناصر بن علناس صاحب قلعة بني حماد (في جزائر اليوم) فقد أغار ابن حماد على الأراضي المرابطية ، ويقال حدث هذا أثناء وجود يوسف بن تاشفين في الأندلس ، وهذا وفي محفوظات الفاتيكان نص رسالة مرسلة من البابا غريغوار السابع الى ابن حماد ، كما حفظ لنا ابن بسام في كتابه الذخيرة نص رسالة تقريع بعث بها يوسف بن تاشفين الى ابن حماد (١٠٦) .

وعلى جميع الأحوال شكل جواز القوات المرابطية الى الأندلس نقطة تحول في تاريخ هذا البلد وفي تاريخ المغرب أيضا ، فقد أعاد نصر الزلاقة التوازن العسكري والسياسي الى ديار الأندلس، وأجل سقوط هذه الديار عدة قرون ، كما أن ظهور المرابطين على أرض الأندلس أتاح الفرصة أمام مسلمي الأندلس وعلى رأسهم بعض الفقهاء للشكوى ضد ملوك الطوائف ثم التمرد على سلطانهم ، وسنرى أنه لولا ذلك لما سهل على يوسف بن تاشفين توحيد الأندلس وازالة ملوك الطوائف .

ولقد رفعت جملة الحوادث من مكانة المعتمد بن عباد في الأندلس وأظهرت أنه أقوى ملوك الطوائف وأكثرهم جدارة ، وأنه بالتالي منافس حقيقي للتوسع المرابطي في الأندلس ، لذلك وضعت الخطط لالازالته فحسب بل للحط من شأنه ونفيه ومعاملته بسوء كبير .

ولقد وقعت هذه المعركة بعد ست عشرة سنة من وقوع معركة منازكرد ، فمعركة منازكرد كانت الفيصل في العلاقات البيزنطية الاسلامية ـ أو لنقل العلاقات بين أوروبا الشرقية والمشرق الاسلامي ـ منذ القرن الرابع هـ / العاشر للميلاد ، بعدما انتاب الضعف الدولة العباسية وصارت اليد العليا في جبهة الثغور ، لابل داخل الشام والجزيرة ، لبيزنطة ، والشي نفسه حدث الآن في جبهة المواجهة الاسلامية مع أوروبا الغربية ، فبعد انتكاسات متوالية طوال ثلاثة أرباع القرن تلقت القوات الأوروبية ضربة ما حقة على بسيط الزلاقة ، ومع أن المسلمين في المشرق والمغرب لم يستثمروا ما كسبوه مباشرة ، لكن صوت الهزيمة طرق بشدة وعنف ابواب

أوروبا من الشرق ومن الغرب ، لاسيما وقد اجتاح التركمان آسية الصغرى بعد منازكرد ، ونشأت لهم دول على بعد أميال من القسطنطينية كذلك الحال في الأندلس ، فسنقرأ في الفصل التالي قصة إعادة الوحدة الى الأندلس وأخذ المسلمين مجددا بزمام المبادرة العسكرية ، ولاشك أن هذا كله شحن اجواء أوروبا الغربية ، وزادها تعصبا وتأثرا بالنشاطات الدينية ، وهكذا استجابت شعوبها بسرعة لدعوة البابوية ـ كما سنرى ـ وحمل الأوروبيون شارة الصليب وخرجوا بحشود هائلة نحو المشرق لازالة الاسلام منه وتحويله الى وطن لاتيني وراء البحار .